أسرار وأحكام وفوائد

سورة الكافرون

لشيخ الإسلام الإمام
ابن تيمية
رحمه الله

تحقيق
مجدي فتحي السيد

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتحقيق والتوزيع
أول شارع المديرية - بجوار بنك قناة السويس
١١ شارع محمد فريد

كتـــاب قد حوى دررا ً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً

دار الصحابة للتراث بطنطا

أول شارع المديرية – أمام بنزينة التعاون

ت – ٣٣١٥٨٧

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله :

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (*) ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (**) .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيماً ﴾ (***) .

(*) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(**) سورة النساء : ١ .

(***) سورة الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .



بين يدى الكتاب

الكتاب الذى بين أيدينا من رسائل الإمام العلامة ، شيخ الإسلام ، تقى الدين ابن تيمية ، الذى إن حدث عن الفقه والحديث ، فهو العلياء ، وإن تكلم فى التفسير فهو بحر لا تكدره الدلاء ، إنه إمام المدققين والمحققين ، صاحب اليد الطولى فى العربية . لقد كان – رحمه الله – زاهداً متقللاً من متاع الدنيا على طريقة السلف الصالح ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، واستمر على ذلك حتى مات [(١)] .

وفى هذا الكتاب الذى بين أيدينا يبدو العلم الزاخر الذى اتصف به شيخ الإسلام فى التفسير .

إنه يحدثنا عن سورة (الكافرون) ، تلك السورة التى تفصل بين الحق والباطل ، بين التوحيد ، والشرك والضلال .

لقد دعا أهل الشرك والضلال نبى الله ﷺ إلى المهادنة ، إلى المسالمة ، لقد أرادوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ، وياله من طلب قبيح ، ويعبدوا إلهه سنة ، هكذا كانوا يفكرون ، وللأمور فى أنفسهم كانوا يطمعون . ولكن معاذ الله أن يشرك نبيه ﷺ بربه شيئاً ، فكانت تلك السورة القرآنية التى تدعو إلى التوحيد ، والاعتصام بالإيمان ، وتدعو إلى البراءة من الشرك والضلال .

إن كل داعية ، بل وكل مؤمن على وجه الأرض فى يومنا هذا ، يحتاج إلى الإحساس ، والتفهم ، والتفاعل مع تلك السورة القرآنية . إن الجميع يحتاجون إلى معرفة أنه لا تصالح ، ولا صداقة بين الإيمان والكفر ، بين النور والظلام .

ومن أجل الإحساس بأهداف السورة يقف الإمام ابن تيمية أمامها وقفات طويلة بين يدى السورة ، فيوضح لنا المقاصد الأساسية لها . ثم يربط بينها ، وبين الآيات القرآنية الأخرى سواء كانت سابقة أو لاحقة . والإمام ابن تيمية صاحب

---

(١) لمزيد من التفصيل عليك بالرجوع إلى مقدمتنا لكتاب (صلاة الجماعة) للإمام ابن تيمية ، طبع بمكتبة الصحابة بطنطا .

الباع الطولى فى النحو والتصريف يقف مع الكلمات اللغوية وقفات هادئة ، فيبن لنا الاشتقاق اللغوى لكلمات ، ويستشهد لما يرأى من كلام أهل العربية ، بل ويعرض ما يكون من خلاف ، ويرجح ما يراه أولى وأصوب .

ومن أجل العيش مع أهداف السورة بوضوح يطوّل الإمام وقفته مع أسباب نزولها ، فينقل ما ورد من أحاديث نبوية ، أو آثار سلفية عن الصحابة ، والتابعين ، والعلماء العاملين .

ثم لا يحرمنا – رحمه الله – من العيش مع فوائد الآيات القرآنية ، والأحكام المستنبطة منها .

وبحق هو : أسرار ، وأحكام ، وفوائد ، سورة الكافرون ، ومن أجل هذا رأينا أن هذا العنوان هو أنسب ما يعبر عن هذا الكتاب ، حيث أن الإمام – رحمه الله – ترك رسالته من غير أن يُعنْون لها .

فسترى فى هذا الكتاب الطيب سر مجيء هذا الحرف ، وعدم مجيء ذلك . كمثالِ الحرف (ما) فى قوله عز وجل : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ لم يقل عز وجل « من تعبدون » وما الحكمة فى ذلك ؟ وما الفوائد التى تخرج بها ؟ عن كل هذا وغيره تعيش مع أنفاس الإمام ابن تيمية رحمه الله .

تنبيه : هذا الكتاب فى أصله رسالة من رسائل ابن تيمية المدمجة فى الفتاوى (٣٧) مجلداً ، ونظراً لما فيها من إفادة للقارىء المسلم رأينا إخراجها منفصلة ، وخدمتها بحيث تَخْرجُ للقارىء المعاصر ، الذى يصعب عليه شراء مجموعة الفتاوى السالفة الذكر .

منهج تحقيق الرسالة

١ – قمت بتصحيح النص ، وتخليصه من الأخطاء التى قد كان أغلبها مطبعى .

خرّجت ما فى الكتاب من أحاديث نبوية ، وقمت بضبطها ، مع ذكر درجة الحديث كلما أمكن ذلك .

٢ – أعدْت الآيات القرآنية إلى مواضعها من المصحف ، مع ضبطها ضبطاً كاملاً لأهمية هذا الأمر .

٣ – قمت بالترجمة للأعلام الذين يتسنى للقارىء معرفتهم سواء كانوا من أهل التفسير ، أو كانوا سخاة ، أو بلغاء ، أو أهل كلام ، أو غيرهم ، مع ترك الترجمة للصحابة لشهرتهم ، واستفاضة العلم بهم .

٤ – علّقت فى بعض المواضع على بعض الأمور التى قد تكون غامضة أمام القارىء ، من توضيح بعض الكلمات ، أو ذكر المراد منها .

٥ – وضعت العناوين التى تساعد القارىء على الوصول إلى هدفه ، حيث إن الرسالة خلت منها أخيراً .

مع صفحات من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية ، ومع أسرار ، وأحكام ، وفوائد ، سورة الكافرون ، أترككم .

والحمد لله رب العالمين

أبو مريم / مجدى فتحى السيد



قال الشيخ رحمه الله :

فصـــــل

في سورة قل يا أيها الكافرون

للناس فى وجه تكرير البراءة من الجانبين طرق حيث قال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعبدُونَ ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعبُدُ ﴾ (١) ، ثم قال : ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِد مَّا عَبَدتُّم ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٢) منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين ، هل كرر الكلام للتوكيد ، أو لنفى الحال والاستقبال ؟ .

قال أبو الفرج (٣) : فى تكرار الكلام قولان . أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه ، قاله الفراء (٤) . وقد أفهمنا هذا فى سورة الرحمن قال ابن قتيبة (٥) : التكرير فى سورة الرحمن للتوكيد .

---

(١) سورة الكافرون : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الكافرون : ٤ ، ٥ .

(٣) هو الإمام العلامة ، الحافظ المفسر ، شيخ الإسلام ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على ، المشهور بابن الجوزى ، له مصنفات كثيرة ، أغلبها حسان ، له تفسير قيم ، سماه : « زاد المسير » طبع بالمكتب الإسلامى ، مات سنة ٥٩٧ هـ . انظر : البداية والنهاية : (٢٨/١٣) ، تذكرة (١٣٤٢/٤) ، شذرات : (٣٢٩/٤)، سير أعلام النبلاء : (٣٦٥/٢١) ، الوفيات لابن خلكان : (١٤٠/٣) ، العبر : (٢٩٧/٤) .

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمى ، المعروف بالفراء ، كان أشهر تلاميذ الكسائى ، له مؤلفات كثيرة ، طيبة منها : معانى القرآن ، المذكر والمؤنث ، الفاخر فى الأمثال ، توفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م ، وهو فى طريقه إلى مكة ، انظر : تاريخ بغداد : (١٤٩/١٤) ، شذرات الذهب : (١٩/٢) ، نزهة الألباء : (١٢٦) وغيرها .

(٥) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الدينورى ، علامة الأدب والبيان ، نصب من نفسه مدافعاً عن القرآن والحديث تجاه مطاعن الفلاسفة ، وأهل الشك ، له مصنفات كثيرة ، منها : عيون الأخبار ، مطبوع ، والمعارف ، مطبوع ، الشعر والشعراء مطبوع ، أدب الكاتب مطبوع ، تأويل مختلف الحديث ، مطبوع ، مات سنة ٢٧٦ هـ .

انظر : تاريخ بغداد : (١٧٠/١٠) ، ابن خلكان : (٣٠٤) ، شذرات الذهب : (١٦٩/٢) ، تهذيب الأسماء للنووى : (٧٧١) ، الأنساب للسمعانى (٤٤٣) ألف .

قال : وهذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد والإفهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز ، لأن افتنان المتعلم والخطيب فى الفنون أحسن من اقتصاده فى المقام على فن واحد ، يقول القائل : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله ! إذا أراد التوكيد ، وحسم الأطماع من أن يفعله ، كما يقول : والله أفعله ؟ بإضمار « لا » إذا أراد الاختصار . ويقول للمرسل ، المستعجل : أعجل ، أعجل ! والرامي : ارم ، ارم ! قال الشاعر :

* كم نعمة كانت لكم ، وكم وكم ؟ *

وقال الآخر :

هل سألت جموع كنـ ـدة يوم ولوا أين أينا ؟

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانية ، لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفاً .

قال ابن قتيبة : فلما عدد الله فى هذه السورة إنعامه ، وذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ، جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهيمهم النعم وتقريرهم بها ، كقولك للرجل : ألم أنزلك منزلا وكنت طريداً ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أحج بك وكنت صروراً [١] ؟ أفتنكر هذا ؟ .

فائدة التكرار فى السورة

قلت : قال ابن قتيبة : تكرار الكلام فى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ لتكرار الوقت . وذلك أنهم قالوا : إن سَرَّك أن ندخل فى دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً ، فنزلت هذه السورة .

---

(١) يقال : رجل صرور ، وصرورة : لم يحج قط ، وأصله من الصَّرّ الحبس والمنع .

رد ابن تيمية فى مسألة التكرار

قلت : هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ ، وإن كان كلام العرب وغير العرب ، فإن جميع الأمم يؤكدون إما فى الطلب ، وإما في الخبر ، بتكرار الكلام ، ومنه قول النبى ﷺ : « والله ! لأغْزُونَّ قُرَيشاً ، ثُمّ واللهِ ! لأغزون قُريشاً ، ثم والله ! لأغزون قريشاً ، ثم قال : إنْ شَاءَ اللهُ . ثم لم يغزهم » [١] .

وروى عنه أنه فى غزوة تبوك كان يقود به حذيفة ، ويسوق به عمار ، فخرج بضعة عشر رجلاً حتى صعدوا العقبة ركباناً متلثمين وكانوا قد أرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فقال لحذيفة : قد ، قد ، وللعمار : سُقْ ، سُقْ [٢] .

فهذا أكثر ، لكن ليس فى القرآن من هذا شيء . فإن القرآن له شأن اختص به – لا يشبهه كلام البشر – لا كلام نبى ، ولا غيره ، وإن كان نزل بلغة العرب . فلا يقدر مخلوق أن يأتي بسورة [٣] ، ولا ببعض سورة مثله .

فليس فى القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط . وإنما فى سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية ، لم يذكر متوالياً . وهذا النمط أرفع من الأول .

---

(١) إسناده ضعيف للإرسال ، أخرجه أبو داود (٣٢٨٥) ، (٣٢٨٦) ، وابن حبان (٤٣٢٨) ، وأبو نعيم (٧/٢٤١) فى الحلية ، والطبرانى (١١٧٤٢) فى الكبير ، والبيهقى (١٠/٤٧) فى السنن الكبرى ، وابن أبى حاتم فى العلل (١/٤٤٠) وقال أبو حاتم : رواه مسعر عن سماك عن عكرمة لم يذكر ابن عباس أن النبى ﷺ . مرسل ، وهو أشبه .

(٢) إسناده حسن ، أخرجه أحمد (٥/٤٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/١٩٥) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، قلت : فى سنده الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال الحافظ : صدوق يهم ، كما فى التقريب (٢/٣٣٣) .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة البقرة : ٢٣] .

وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكراراً ، كما ظنه بعضهم .

و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، وهو مع الفصل بينهما بجملة .

التكرار فى سورة الرحمٰن

وقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها : ألم تك فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تك عرياناً فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تك خاملاً فعرفتك ؟ ونحو ذلك . وهذا أقرب من التكرار المتوالي ، كما في اليمين المكررة .

وكذلك ما يقوله بعضهم : إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ ، كقوله :

* **فألفى قولها كذباً ومينا** *

فليس فى القرآن من هذا شيء . ولا يذكر فيه لفظاً زائداً إلا لمعنى زائد وإن كان فى ضمن ذلك التوكيد ، وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله ﴿ فَبِماَ رَحْمةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهمْ ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمينَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٣] ، فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه . فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ، وقوة اللفظ لقوة المعنى . والضم أقوى من الكسر . والكسر أقوى من الفتح ، ولهذا يقطع على الضم لما هو أقوى مثل « الكُرْه » و « الكَرْه » فالكره هو الشيء المكروه ، كقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [٤] . والكره المصدر ، كقوله ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ [٥] . والشيء الذي فى نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره .

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) سورة المؤمنون : ٤٠ .

(٣) سورة الأعراف : ٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢١٦ .

(٥) سورة فصلت : ١١ .

وكذلك « الذَّبْح » و « الذِّبْح » ، فالذَّبْح : المَذبوح ، كقوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [١] . والذِّبْح : الفعل . والذبح : مذبوح ، وهو جسد يذبح ، فهو أكمل من نفس الفعل .

قال أبو الفرج : والقول الثاني أن المعنى : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فى حالي هذه ، ﴿ ولا أنتم ﴾ فى حالكم هذه ﴿ عابدون ما أعبد ﴾ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ في ما أُستقبل ، وكذلك (أنتم) فنفى عنهم في الحال والاستقبال . وهذا في قوم بأعيانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون ، كما ذكرناه عن مقاتل . فلا يكون حينئذ تكرار . قال : وهذا قول ثعلب [٢] ، والزجاج [٣] .

قلت : قد ذكر القولين جماعة ، لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني . فقالوا – واللفظ للبغوي – [٤] : معنى الآية : لا أعبد ما تعبدون فى الحال ، ولا أنا عابد ما عبدتم فى الاستقبال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى الاستقبال ، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون .

قال : وقال أكثر أهل المعاني : نزل بلسان العرب على مجاري خطابهم ، ومن مذاهبهم التكرار إرادة للتوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز .

---

(١) سورة الصافات : ١٠٧ .

(٢) هو أبو العباس ، أحمد بن يحيى ، إمام الكوفيين فى زمانه ، له عدة مصنفات نافعة ، منها : الفصيح ، قواعد الشعر ، غريب الحديث ، معانى القرآن ، المجالسات طبع بتحقيق العلامة عبد السلام هارون رحمه الله ، مات ثعلب سنة ٢٠٠ هـ .

انظر : تاريخ بغداد : (٢٠٤/٥) ، تذكرة : (٢١٤/٢) ، شذرات الذهب : (٢٠٧/٢) وغيرها .

(٣) هو أبو إسحاق ، إبراهيم بن السرى ، من أشهر تلاميذ المبرد ، له كتاب : (خلق الإنسان ٧) و (سر النحو) ، و (حروف المعانى) ، مات سنة ٣١١ هـ . انظر : تاريخ بغداد : (٨٩/٦) ، ابن خلكان : (١٢) ، نزهة الألباء : (٣٠٨) ، بغية الوعاة : (١٧٩) .

(٤) هو أبو محمد ، الحسين بن مسعود البغوى ، فقيه شافعى ، ومحدث ، ومفسر ، لُقب بمحيى السنة ، له مؤلفات مفيدة ، منها : (شرح السنة) ، (المصابيح) وتفسيره : (معالم التنزيل) ، مات سنة ٥١٦ هجرية . انظر : البداية والنهاية : (١٩٣/١٢) ، تذكرة : (١٢٥٧/٤) ، وفيات الأعيان : (٤٦٣/١) ، العبر : (٣٧/٤) .

قلت : ومن المفسرين من لم يذكر غير الثاني – منهم المهدوي [١] وابن عطية [٢] – قال ابن عطية : لما كان قوله : (لا أعبد) محتملاً أن يراد به الآن ، ويبقى المستأنف منتظر ما يكون فيه من عبادته . جاء البيان بقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ . أي أبدًا ما حييت .

ثم جاء قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً ، كالذين كشف الغيب عنهم ، كما قيل لنوح : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [٣] أما إن هذا فخطاب لمعينين ، وقوم نوح قد عموا بذلك .

قال : فهذا معنى الترديد الذي فى السورة ، وهو بارع الفصاحة . وليس هو بتكرار فقط ، بل فيه ما ذكرته ، مع الإبلاغ والتوكيد ، وزيادة الأمر بياناً وتبرياً منهم .

قلت : هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير ، لكن فيه نقص من جهة أخرى ، وهو جعلهم هذا خطاباً لمعينين ، فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه .

وهذا غلط . فإن قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ خطاب لكل كافر ، وكان يقرأ بها فى المدينة بعد موت أولئك المعينين ، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك .

فلو كانت خطاباً لأولئك المعينين ، أو لمن علم منهم أنه يموت كافراً ، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه .

وأيضاً فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذ ذاك علم أنهم يموتون على الكفر .

---

(١) هو أبو العباس ، أحمد بن عمار ، المهدوى ، أحد المفسرين ، توفى بعد سنة ٤٣٠ هـ . انظر : إنباه الرواة : (٩١/١) ، طبقات القراء لابن الجزرى : (٩٢/١) .

(٢) هو أبو محمد ، عبد الحق بن غالب ، بن عطيه الغرناطى ، له تفسير طيب ، مات سنة ٥٤١ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٥٨٧/١٩) ، بغية الوعاة : (٧٣/٢) ، كشف الظنون : (٤٣٩) ، (١٦١٣) . وغيرها .

(٣) سورة هود : ٣٦ .

والقول بأنه إنما خاطب بها معينين قول لم يقله من يعتمد عليه . ولكن قد قال مقاتل بن سليمان [١] : إنه نزلت في أبي جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد . ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث . كنقل الكلبي .

أسباب نزول سورة الكافرون

ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً ، كمحمد بن جرير [٢] ، وعبد الرحمن بن أبي حاتم [٣] ، وأبي بكر بن المنذر [٤] ، فضلا عن مثل أحمد بن حنبل [٥] ، وإسحاق بن راهويه [٦] .

---

(١) هو أبو الحسن ، مقاتل بن سليمان البلخي ، له تفسير باسمه ، يسعى فيه للتوفيق بين النص القرآني ، وروايات أهل الكتاب ، بجانب استخدام الوسائل اللغوية ، قال الحافظ عنه : كذبوه ، وهجروه ، ورمى بالتجسيم ، مات سنة ١٥٠ هجرية .

انظر : التقريب : (٢/٢٧٢) ، تاريخ بغداد : (١٣/١٦٠) ، ابن خلكان : (٧٠٤) ، التهذيب : (١٠/٢٧٩) ، تهذيب الأسماء للنووي : (٥٧٤) .

(٢) هو الإمام العلامة ، المفسر ، أبو جعفر ، محمد بن جرير الطبري ، صاحب التفسير الذائع ، المعروف بـ (جامع البيان) ، مات سنة ٣١٠ هجرية . انظر : البداية والنهاية : (١١/١٤٥) ، تاريخ بغداد : (٢/١٦٢) ، تذكرة : (٢/٧١٠) ، ميزان : (٣/٤٩٨) ، اللسان : (٥/١٠٠) ، تهذيب الأسماء : (١/٧٨) ، الوافي بالوفيات : (٢/٢٨٤) .

(٣) هو أبو محمد ، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ، الحافظ العلامة ، صاحب التصانيف الحسان ، منها : « الجرح والتعديل » ، « علل الحديث » مات سنة ٣٢٧ هـ .

انظر : البداية والنهاية : (١١/١٩١) ، تذكرة : (٣/٨٢٩)، شذرات : (٢/٣٠٨) ، العبر : (٢/٢٠٨) ، اللسان : (٣/٤٣٢) ، الميزان : (٢/٥٨٧) ، النجوم الزاهرة : (٣/٢٥٦) وغيرها .

(٤) هو محمد بن إبراهيم ، النيسابوري ، أبو بكر بن المنذر ، يعد أحد المجتهدين ، وتتفق آراؤه مع رأى الشافعي ، له مصنفات عديدة ، منها : كتاب (الإجماع) مطبوع ، مات سنة ٣١٨ هـ . انظر : تذكرة : (٧٨٢) ، الوافي بالوفيات : (١/٣٣٦) ، طبقات الشافعية للسبكي : (٢/١٢٦) ، الأعلام للزركلي : (٦/١٨٤) ، معجم المؤلفين لكحالة : (٨/٢٢٠) .

(٥) الإمام الجليل ، أبو عبد الله ، الفقيه المعروف ، أحمد بن محمد بن حنبل ، له مؤلفات نفيسة ، منها : (المسند) ، و (الزهد) وغيرها ، توفى سنة ٢٤١ هجرية .

انظر : تاريخ بغداد : (٤/٤١٢) ، تذكرة : (٢/٤٣١) ، التهذيب : (١/٧٢) ، الحلية : (٩/١٦١) ، طبقات ابن سعد : (٧/٩٢) ، العبر : (١/٤٣٥) ، وفيات الأعيان : (١/١٧) ، شذرات : (٢/٩٦) .

(٦) هو أبو محمد ، إسحاق بن إبراهيم بن راهُويه ، ثقة ، حافظ ، مجتهد ، توفى فى سنة ٢٣٨ هـ .=

وقد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقاً ، كما رواه عبد بن حُميد [١] ، عن وهب ابن منبه [٢] قال : قالت قريش للنبي ﷺ : إن سرك أن ندخل في دينك عاماً وتدخل في ديننا عاماً ، فنزلت : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى ختمها . وعن ابن عباس . قالت قريش : يا محمد ! لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فنزلت السورة [٣] . وعن قتادة [٤] قال : أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله : ﴿ يا أيها ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه : قال كفار قريش ، فذكره .

وقال عكرمة [٥] : برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار ، وقال قتادة : أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم .

= انظر : تذكرة : (٤٣٣/٢) ، التهذيب : (٢١٦/١) ، الحلية : (٢٣٤/٩) ، العبر : (٤٢٦/١) ، الميزان : (١٨٢/١) ، النجوم : (٢٩٣/٢) ، وفيات الأعيان : (٦٤/١) .

(١) هو أبو محمد ، عبد بن حميد ، وقيل : اسمه عبد الحميد ، ثقة ، حافظ ، مات سنة ٢٤٩ هـ . انظر : تبصير المنتبه : (١٢١٨/٣) ، تذكرة : (٥٣٤/٢) ، شذرات : (١٢٠/٢) ، العبر : (٤٥٤/١) ، النجوم الزاهرة : (٣٣٠/٢) ، التقريب : (٥٢٩/١) .

(٢) هو أبو عبد الله ، وهب بن منبه اليماني ، ثقة ، مشهور بالرواية عن أهل الكتاب فإنه كان منهم ، ثم أسلم ، أخرج له البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي مات سنة ١١٦ هـ وقيل غير ذلك . انظر : تذكرة : (١٠٠/١) ، تهذيب الأسماء : (١٤٩/٢) ، شذرات : (١٥٠/١) ، طبقات ابن سعد : (٣٩٥/٥) ، العبر : (١٤٣/١) ، الحلية : (٢٣/٤) .

(٣) أخرجه ابن جرير (٢١٤/٣٠) بسنده عن ابن عباس .

(٤) هو قتادة بن دعامة السدوسي ، ثقة ، حديثه في الكتب الستة ، مات سنة ١١٧ هـ . انظر : البداية والنهاية : (٣١٣/٩) ، تذكرة : (١٢٢/١) ، تهذيب الأسماء : (٥٧/٢) ، التهذيب : (٣٣٧/٨) ، شذرات : (١٥٣/١) ، طبقات ابن سعد : (١/٧) ، الميزان : (٣٨٥/٣) ، العبر : (١٤٦/١) ، وفيات الأعيان : (٤٢٧/١) .

(٥) هو أبو عبد الله ، عكرمة بن البربري ، أحد الأئمة الأعلام ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، ثقة ثبت ، عالم بالتفسير ، حديثه في الكتب الستة ، مات سنة ١٠٧ هـ . انظر : التقريب : (٣٠/٢) ، تذكرة : (٩٥/١) ، تهذيب الأسماء : (٣٤٠/١) ، التهذيب : (٢٦٣/٧) ، شذرات : (١٣٠/١) ، طبقات ابن سعد : (٢١٢/٥) ، العبر : (١٣١/١) .

من أسماء السورة المقشقشة فماذا يعنى

وروى قتادة عن زرارة بن أوفى [(١)] : كانت تسمى « المقشقشة » [(٢)] . يقال : قشقش فلان ، إذا برىء من مرضه ، فهي تبرىء صاحبها من الشرك .

وبهذا نعتها النبى ﷺ في الحديث المعروف فى المسند والترمذي من حديث إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن فروة بن نوفل عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال له : « مجيء ما جاء بك ؟ قال : جئت ، يا رسول الله ! لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي . قال : إِذَا أَخذتَ مضجَعكَ فاقرأْ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمتها . فإنها بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ » [(٣)] .

رواه غير واحد عن أبى إسحاق ، وكان تارة يسنده ، وتارة يرسله رواه عنه زهير ، وإسرائيل مسندًا ؛ ورواه عنه شعبة ولم يذكر عن أبيه وقال : « عن أبى إسحاق ، عن رجل ، عن فروة بن نوفل » ، ولم يقل « عن أبيه » . قال الترمذي : وحديث زهير أشبه وأصح من حديث شعبة . قال : وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه ، فرواه عبد الرحمن بن نوفل ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ ، وعبد الرحمن ابن نوفل هو أخو فروة بن نوفل .

قلت : وقد رواه عن أبى إسحاق ، إسماعيل بن أبى خالد ، قال : « جاء رجل من أشجع إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! عَلِّمْنى كلامًا أقولُه عند منامي . قال : إِنَّكَ لَنَا ظِئْرٌ ، اقْرَأْ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ عِنْدَ منامك ، فَإِنَّها بَرَاءَةٌ مِن الشِّرْكِ » [(٤)] .

---

(١) هو أبو حاجب ، زرارة بن أوفى العامرى ، ثقة عابد ، حديثه فى الكتب الستة ، مات فجأة فى الصلاة ، سنة ٩٣ هـ . انظر : التقريب : (٢٥٩/١) ، التهذيب : (٣٢٣/٣) ، تاريخ الثقات : (٤٩٨) .

(٢) القشقشة : تهي البرء ، إذا برىء الرجل من عِلته ، قيل : قد تقشقش .

(٣) إسناده حسن ، أخرجه أحمد (٤٥٦/٥) ، وأبو داود (٥٠٥٥) والترمذى (٣٤٦٣) ، والحاكم (٥٦٥/١) وصححه وأقره الذهبى ، كلهم من حديث نوفل الأشجعى ، وكذا ابن السنى (٦٨٤) فى عمل اليوم والليلة ، والطبرانى (٢١٩٥) فى الكبير من حديث جبلة بن حارثة ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٢١/١٠) رجاله وثقوا .

(٤) سبق تخريجه .

من فوائد سورة الكافرون

فقد أمر رسول الله ﷺ واحداً من المسلمين أن يقرأها ، وأخبره أنها براءة من الشرك . فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط ، لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد . ومعلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك – اعتقادي وعملي – .

من أهداف السورة البراءة من كل مشرك

وقوله : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ خطاب لكل كافر وإن أسلم فيما بعد . فدينه قبل الإسلام له كان والمؤمنون بريئون منه . وإن غفره الله له بالتوبة منه ، كما قال لنبيه : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ ﴾ [(١)] فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها . وهذا كقوله : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَملُكُم ، أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِمّا : تَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)] .

وروى ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ثنا محمد بن موسى الحرشي ، ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ، ثنا داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : « أن قريشا دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل فيهم ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطأوا عقبه – أي يسودوه – فقالوا : هذا لك عندنا يا محمد ! وكف عن شتم آلهتنا ، فلا تذكرها بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ، وهي لك ولنا فيها صلاح . قال : ما هي ؟ . قالوا : تعبد آلهتنا سنة – اللات والعزى – ونعبد إلهك سنة . قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي . فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ ﴿ (قل يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخرها [(٣)] ، وأنزل الله

---

(١) سورة الشعراء : ٢١٦ .

(٢) سورة يونس : ٤١ .

(٣) إسناده ضعيف ، في سنده الحرشي ، لين ، أخرجه له الترمذي ، والنسائي ، قاله ابن حجر في التقريب (٢١١/٢) ، وكتب بالأصل (الجرشي) والصواب ما أثبتناه .

وفي سنده عبد الله بن عيسى ، من الضعفاء ، أخرج له النسائي ، التقريب (٤٣٩/١) .

عليه : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ، وَلَقَد أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ، بَلِ اللهَ فَاْعْبُدْ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ﴾ (٢) خطاب لكل من عبد غير الله وإنْ كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد . وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله .

وقوله فى هذا الحديث « حَتَّى أنظر ما يأتيني مِن ربى » (٣) قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتى هي أحسن ليجعل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك . فيؤخر الجواب حتى يستأمره ، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه .

وقد تخطب إلى الرجل ابنته فيقول : حتى أشاور أمها ، وهو يريد أن لا يزوجها بذلك ، ويعلم أن أمها لا تشير به . وكذلك قد يقول النائب : حتى أشاور السلطان .

فليس فى مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك .

وقد كان جماعة من قريش من الذين يأمرونه وأصحابه أن يعبدوا غير الله ، ويقاتلونهم ، ويعادونهم عداوة عظيمة على ذلك ، ثم تابوا وأسلموا وقرأوا هذه السورة .

فيمن نزلت السورة ؟

ومن النقلة من يعين ناساً غير الذين عينهم غيره . منهم من يذكر أبا جهل

---

(١) سورة الزمر : ٦٤ — ٦٦ .

(٢) سورة الزمر : ٦٤ .

(٣) انظر رقم (٤٠) .

وطائفة ، ومنهم من يذكر عتبة بن ربيعة وطائفة . ومنهم من يذكر الوليد بن مغيرة وطائفة . ومنهم من يقول : طلبوا أن يعبدوا الله معه عاماً ، ويعبد آلهتهم معهم عاماً . ومنهم من يقول : طلبوا أن يستلم آلهتهم .

ومنهم من يقول : طلبوا الإشتراك ، كما روى ابن أبى حاتم وغيره عن ابن إسحاق قال : حدثني سعيد بن ميناء مولى أبى البختري قال لقى الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية ابن خلف ، رسول الله ﷺ ، فقالوا : هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ، ولنشترك نحن وأنت فى أمرنا كله . فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت بحظك منه . فأنزل الله السورة [١] .

وهذا منقول عن عبيد بن عمير [٢] ، وفيه أن القائل له عتبة ، وأميه .

فهذه الروايات متطابقة على معنى واحد ، وهو أنهم طلبوا منه أن يدخل فى شيء من دينهم ، ويدخلوا في شيء من دينه ، ثم إن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا وتارة هذا ، وقوم هذا وقوم هذا .

وعلى كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم – من مضى ، ومن يأتى إلى يوم القيامة .

﴿ البراءة من كل معبود فى ملة إبراهيم عليه السلام ﴾

وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه . وهذه ملة إبراهيم الخليل . وهو مبعوث بملته قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِى فَإِنهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمةَ بَاقِيةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [٣] .

---

(١) إسناده مرسل ، والمرسل من أقسام الضعيف .

(٢) هو عبيد بن عمير الليثى ، ولد على عهد النبوة ، حديثه فى الكتب الستة ، وكان قاص مكة ، وقد أجمع على ثقته . انظر : الإصابة (٧٨/٣) ، التهذيب الحلية : (٢٦٦/٣) ، الجرح والتعديل : (٤٠٩/٢/٢) ، سير أعلام النبلاء : (١٥٦/٤) .

(٣) سورة الزخرف : ٢٦ .

وقال الخليل أيضا : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ حَنيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمشْرِكِينَ ﴾ (١) وقال ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُواْ لِقَومِهِمْ إِنَّا بُرآءَ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ، كَفَرنَا بِكُمْ وَبَدا بيْنَنَا وَبَينكُمْ العَداوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤمِنُواْ بِاللهِ وَحْدهُ ﴾ (٢) .

وقال لنبيه : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ ممَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه ، وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب .

وقد ذكر المهدوي هذا القول ، وذكر معه قولين آخرين . فقال : الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة ، لأن لامها مخاطبة لمن سبق فى علم الله أن يموت كافراً . فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم .

من أسرار التكرار فى القرآن

وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير فى المعنى ، ولا في اللفظ ، سوى موضع واحد منها . فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى . بل معنى ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فى الحال ، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فى الحال ، ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ فى الاستقبال ، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فى الاستقبال .

قال : فقد اختلف اللفظ والمعنى فى قوله ﴿ لا أعبد ﴾ ، وما بعده ﴿ ولا أنا ﴾ . وتكرر ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في اللفظ دون المعنى .

قال : وقيل إن معنى الأول : ولا أنتم عابدون ما عبدت ، ومعنى الثاني :

---

(١) سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الممتحنة : ٤ .

(٣) سورة يونس : ٤١ .

ولا أنتم عابدون ما أعبد . فعدل عن لفظ « عبدتُ » للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل – قد يقع أحدهما موقع الآخر – وأكثر ما يأتي ذلك فى أخبار الله تعالى .

ويجوز أن تكون « ما » والفعل مصدراً ، وقيل إن معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون ! لا أعبد الأصنام . الذي تعبدون ولا أنتم عابدون الذي أعبده ، لإشراككم به واتخاذكم معه الأصنام . فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ، لأنكم تعبدونه مشركين به . فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أي مثل عبادتكم . فهو في الثاني مصدر ، وكذلك : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ هو فى الثانى مصدر أيضاً ، معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتى التى هي توحيد .

قلت : القول الثالث هو في معنى الثانى ، لكن جعل قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ معنيين . أحدهما بمعنى « ما عبدت » . والآخر بمعنى « ما أعبد » ليطابق قوله لهم ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ .

فلما تبرأ من أن يعبد في الحال والاستقبال ما يعبدونه فى الماضي والحال ، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد فى الحال والاستقبال . لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي . قال هؤلاء : وإنما لم يقل فى حقه : « ما عبدت » للإشعار بأن ما أعبده في الماضي هو الذي أعبده فى المستقبل .

قلت : أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم .

لكن إذا أريد بقوله : (ما عبدتم) [ما أريد] بقوله : ﴿ ما أعبد ﴾ – فى أحد الموضعين الماضي – كان التقدير على ما ذكروه : لا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم فى الماضي . فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبدوه فى الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل .

وكذلك إذا قيل : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، أي في الماضي ، فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الاستقبال إنما نفى عبادة ما عبدوه فى الماضي . وهذا أنقص لمعنى الآية . وكيف يتبرأ فى المستقبل من عبادة ما عبدوه فى الماضي فقط ؟ وكذلك هم ؟

وإن قيل : فى المستقبل قد يعبدون الله بالإنتقال عن الكفر . فهو فى الحال والاستقبال لا يعبد ما عبدوه . قيل : فعلى هذا لا يقال لهؤلاء ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي . بل قد يعبدون فى المستقبل – إذا انتقلوا – ربه الذي عبده فيما مضى .

وإن قيل : – قول هؤلاء هو القول الثاني – لا أعبد في الحال ما تعبدون فى الحال ، ولا أعبد فى المستقبل ما تعبدون فى المستقبل ، قيل : ولفظ الآية ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، ليس لفظها « ولا أنا عابد ما تعبدون » . فقوله : ﴿ ما عبدتم ﴾ إن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى . وإن أريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي فى قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، فإن الماضي هنا بمعنى المضارع . فإذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً – لم ينقل إلى الماضي – فيكون عكس المقصود .

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل « ما » مصدرية في الجملة الثانية دون الأخرى . وهذا أيضاً ليس فى الكلام ما يدل على الفرق بينهما . وإذا جعلت فى الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل علي « ما » المصدرية حاصل بقوله « ما » . فإنه لم يقل « ولا أنتم عابدون من أعبد » ، بل قال ﴿ ما أعبد ﴾ .

ولفظ « ما » يدل على الصفة بخلاف « من » . فإنه يدل على العين . كقوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (١) . أي الطيب ﴿ وَالسَّمَآءِ وَمَا بَناهَا ﴾ (٢) أي وبانيها . ونظيره قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدونَ مِن بَعْدِي ، قَالُواْ نعبد إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ (٣) ، ولم يقل « من تعبدون من بعدي » .

وهذا نظير [قوله] ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ سواء . فالمعنى : لا أعبد معبودكم ، ولا أنتم عابدون معبودي .

---

(١) سورة النساء : ٣ .

(٢) سورة الشمس : ٥ .

(٣) سورة البقرة : ١٣٣ .

فقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ يتناول شركهم ، فإنه ليس بعبادة لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه . فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له ، وإن دعوه ، وصلوا له .

وأيضاً فما عبدوا ما يعبده ، وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص . بل هذا يتناول عبادته وحده ، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء والصفات . فمن كذب به فى بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه .

وأيضاً فالشرائع قد تتنوع فى العبادات ، فيكون المعبود واحداً وإن لم تكن العبادة مثل العبادة . وهؤلاء لا يتبرأ منهم . فكل من عبد الله مخلصا له الدين فهو مسلم فى كل وقت . ولكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه . فلو قال : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي . فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته . وإنما البراءة من المعبود وعبادته .

فصـــــل

القرآن وإعجازه

إذا تبين هذا فنقول : القرآن تنزيل من حكيم حميد ، وهو كتاب أُحكمت آياته ثم فُصلت .

ولو أن رجلاً من بني آدم له علمٌ ، أو حكمة ، أو خطبة ، أو قصيدة ، أو مصنف ، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد فى ذلك حكمة ، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى . فكيف بكلام رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، لا سيما وقد قال فيه : ﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [١] .

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

فنقول : الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي . فيعم الحاضر والمستقبل ، كما قال سيبويه [١] : وبنوه لما مضى من الزمان ، ولما هو دائم لم ينقطع ، ولما لم يأت – بمعنى الماضى ، والمضارع وفعل الأمر – فجعل المضارع لما هو من الزمان دائما لم ينقطع ، وقد يتناول الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ لا أعبد ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم فى الزمان الحاضر والزمان المستقبل ، وقوله : ﴿ ما تعبدون ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل ، كلاهما مضارع .

وقال في الجملة الثانية عن نفسه : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ . فلم يقل « لا أعبد » . بل قال : ﴿ ولا أنا عابد ﴾ . ولم يقل « ما تعبدون » ، بل قال ﴿ ما عبدتم ﴾ . فاللفظ فى فعله وفعلهم مغاير للفظ فى الجملة الأولى .

والنفى بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى . فإنه قال : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ بصيغة الماضى . فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي ، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى . وليس معبودهم فى كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر ، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى .

فقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ براءة من كل ما عبدوه فى الأزمنة الماضية . كما تبرأ أولاً مما عبدوه فى الحال أو الاستقبال . فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون فى كل زمان – ماض ، وحاضر ، ومستقبل – وقوله أولا : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ لا يتناول هذا كله .

وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل ، ليس مضافا ، فهو

---

(١) سيبويه ، هو أبو بشر عمر بن عثمان ، العلامة النحوى ، صاحب أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربى كافة ، مات سنة ١٧٧ هـ وقيل غير ذلك . انظر : تاريخ بغداد : (١٩٥/١٢) ، ابن خلكان : (٤٧٧) ، مرآة الجنان : (٣٤٨/١) ، شذرات الذهب : (٢٥٣/١) .

يتناول الحال والاستقبال أيضاً ، لكنه جملة اسمية ، والنفى بما بعد الفعل فيه زيادة معنى ، كما تقول : ما أفعل هذا ، وما أنا بفاعله .

وقولك « ما هو بفاعل هذا أبداً » أبلغ من قولك « ما يفعله أبداً » . فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها ، بخلاف قولك « ما يفعل هذا » ، فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه . ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له : بخلاف قوله « ما هو فاعلا ، وما هو بفاعل » ، كما فى قوله : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [١] وقوله : ﴿ ما أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أُنتم بمصْرِخِىَّ ﴾ [٢] وقوله : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٣] ، ﴿ وَمَآ أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ ﴾ [٤] ، ﴿ وَمَآ أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [٥] ، ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [٦] .

ولا يقال : الجملة الإسمية ترك الثبوت ، ونفى ذلك لا يقتضي نفي العارض . فإن هذه الجملة فى معنى الفعلية نفي . لكونها عملت عمل الفعل لكنها دلت على اتصاف الذات بهذا ، فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيهاً للذات ونفياً لقبولها لذلك . فالأول نفي الفعل فى الماضي والمستقبل ، والثاني نفى قبوله فى الماضي مع الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، أي نفسي لا تقبل ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط ولو كنتم عبدتموه فى الماضي فقط . فأي معبود عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده فى وقت من الأوقات .

---

(١) سورة النحل : ٧١ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٣) سورة البقرة : ٧٤ ، ٨٥ ، وسورة آل عمران : ٩٩ ، وغيرهما .

(٤) سورة النمل : ٨١ .

(٥) سورة فاطر : ٢٢ .

(٦) سورة البقرة : ١٠٢ .

ففي هذا من عموم عبادتهم فى الماضي والمستقبل ، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة فى جميع الأزمان ما ليس فى الجملة الأولى . تلك تضمنت نفي الفعل فى الزمان غير الماضي ، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو فى بعض الزمان الماضي فقط . والتقدير : ما عبدتموه ولو فى بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً .

ولكن لم ينف إلا ما يكون منه فى الحاضر والمستقبل لأن المقصود براءته هو فى الحال والإستقبال . وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها .

فهو يتبرأ فى الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون فى أي زمان كان وينفى جواز عبادته لمعبودهم . ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ . فهو ينفى جوازه شرعا ووقوعا . فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستقبح من الأفعال ، كمن دعي إلى ظلم أو فاحشة فقال : « أنا أفعل هذا ؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً » . فهو أبلغ من قوله : « لا أفعله أبداً » . وهذا كقوله : ﴿ وَمَآ أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (١) .

فهو يتضمن نفى الفعل بغضاً فيه وكراهة له . بخلاف قوله « لا أفعل » . فقد يتركه الإنسان وهو يحبه لغرض آخر . فإذا قال : « ما أنا عابد ما عبدتم » دل على البغض والكراهة والمقت لمعبودهم ولعبادتهم إياه . وهذه هى البراءة .

ولهذا تستعمل فى ضد الولاية فيقال : تول فلاناً ، وتبرأ من فلان . كما قال تعالى ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ (٢) الآية .

وأما قوله عن الكفار : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، فهو خطاب لجنس

---

(١) سورة البقرة : ١٤٥ .

(٢) سورة الممتحنة : ٤ .

الكفار وإن أسلموا فيما بعد ، فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً . فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك . فإنهم حينئذ مؤمنون ، لا كافرون . وإن كانوا منافقين فهم كافرون فى الباطن ، فيتناولهم الخطاب.

وهذا كما يقال قل يا أيها المحاربون ، والمخاصمون ، والمقاتلون والمعادون . فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة .

وما دام الكافر كافراً فإنه لا يعبد الله ، وإنما يعبد الشيطان ؛ سواء كان متظاهراً ، أو غير متظاهر به كاليهود .

الشيطان معبود اليهود

فإن اليهود لا يعبدون الله ، وإنما يعبدون الشيطان . لأن عبادة الله إنما تكون بما شرع وأمر . وهم وإن زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة والمنهى عنها هو يكرهها ويبغضها وينهى عنها ، فليست عبادة .

فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافراً . والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع . فهو ما دام كافراً لا يعبد معبود محمد ﷺ – لا في الحاضر ولا فى المستقبل – .

ولم يقل عنهم « ولا تعبدون ما أعبد » ، بل ذكر الجملة الإسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد ، لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة . إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد . ومن كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط .

وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله ، لم تقتصر على نفي الفعل .

ولم يحتج أن يقول فيهم : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » كما قال فى نفسه :﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ لوجهين .

هل كل مسلم مأمور بقراءة السورة ؟

أحدهما : أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة ، ومنهم من كان معبوده غير الله . فلو قال : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » لقالوا : بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركا ، بخلاف ما إذا قال:« ولا أنتم عابدون ما أعبده فى هذا الوقت » . ولم يقل:« ما أنا عابد له » إذ نفسه قد لا تكون عابدة له مطلقاً . وقد يجوز أن يعبد الواحد من الناس غير الله فى المستقبل ، فلا يكون من لم يعبد (ما يعبده) فى المستقبل مذموماً ، بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره ، فإنه حين يقولها ما يعبد إلا الله . فهو يقول للكفار « ولا أنتم عابدون ما أعبده الآن » . وذكر النفي عن الكفار فى الجملتين لتقارب كل جمل جملة . فلما قال: ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فنفى الفعل ، قال:﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ .

ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه – ذكر ما يدل على كراهته له وقبحه ، ونفى أن يعبد شيئاً مما عبدوه ولو فى بعض الزمان – قال:﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده . فليس لبراءتى ، وكمال براءتى وبعدي من معبودكم ، وكمال قربى إلى الله فى عبادتى له وحده لا شريك له ، يكون لكم نصيب من هذه العبادة . بل أنتم أيضاً فى هذه الحال لا تعبدون ما أعبد – لا فى الحال الأولى ، ولا في الثانية – .

ولو اقتصر فى تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم فى هذه الحال الثانية . فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة ، وحين البراءة الثانية العامة القاطعة .

وهم لم يختلف حالهم فى الحالين ، بل هم فيهما لا يعبدون ما يعبد . فلم يكن فى تغيير العبارة فائدة ، وإنما غيرت العبارة فى حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين .

كيف يقوى إيمانك ؟

والإنسان يقوى يقينه ، وإخلاصه ، وتوحيده ، وبراءته من الشرك وأهله ،

وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم ، فرفع درجته فى ذلك . وهو فى ذلك يقول للكفار : « لا تعبدون ما أعبد » فى هذه الحال – سواء كانوا هم قد زاد كفرهم وبغضهم له أو لم يزد .

فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم ، ويخبرهم أنهم برآء منه . وتبريه منهم إنشاء ينشئه ، كما ينشئ المتكلم بالشهادتين . وهذا يزيد وينقص . ويقوى ويضعف .

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه فى هذه الحال ، لا ينشئ شيئاً لم يكن فيهم . فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم ، والخبر مطابق للمخبر عنه ، فلم يتغير لفظ خبره عنهم ، إذا كانوا فى كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد . فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأوقات – زادوا أو نقصوا – .

ولا يجوز للمؤمن أن ينشئ زيادة فى كفرهم ، فإن ذلك محرم . بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان . وليس له أن ينقصهم فى خبره عما هم متصفون به . فلم يكن فى الإخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه ولا نقص . فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد . وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشئ قوة الإخلاص لله وحده وعبادته وحده ، والبراءة من كل معبود سواه وعبادته ، وبراءته منه ومن عابديه . وقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ وإن كان لفظها خبراً ففيها معنى الإنشاء ، كسائر ألفاظ الإنشاءات ، كقوله:« أشهد أن لا إله إلا الله » ، وقوله:﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [1] وقوله:﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [2] فكل هذه الأقوال فيها معنى الإنشاء لها ينشئه المؤمن في نفسه من زيادة البراءة من الشرك وهي المقشقشة التى تقشقش من الشرك . كما يقشقش المريض من المرض ، فإن الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب . فأمر المؤمن بقول يوجب فى قلبه من البراءة من الشرك ما لم يكن في قلبه قبل ذلك . وكلما قاله ازداد براءة من الشرك ، وقلبه شفاء من المرض ، وإن كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالإخبار عنهم إلا كفراً . فالجمل

---

(١) سورة الزخرف : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٨ .

الخبرية تطابق المخبر عنه . والإنشاء يوجب إحداث ما لم يكن . فقيل:﴿ قل يا أيها الكافرون ۞ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، أي أنا ممتنع من هذا ، تارك له ، ثم قال:﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي أنا برئ من هذا ، متنزه عنه ، مزك لنفسي منه . فإن الشرك أعظم ما تنجس به النفس ، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه . فما أنا عابد قط ما عبدتم فى وقت من الأوقات .

وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد ، بل أنتم بريئون مما أعبد . وأنا برىء مما تعبدون ، مأمور بالبراءة منه ، وطالب زيادة البراءة منه ، ومجتهد فى ذلك .

وأنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد ، إما لكونكم تأمرون بذلك وإما لكونكم تعبدونه ، فلا أخبر به ، فإنه كذب . وإما لكونكم تجتهدون فى البراءة وتبالغون فيها ، فبها تختلف فيه أحوالكم .

وأنا لا يسوغ لي أن أذكر ما يزيل براءتكم . ولا أكذب عليكم فإنكم تنقصون منها إذا تبرأت ، بل التبرى منها داع وباعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هذه البراءة ، لا سيما فى حق الرسول الذي خوطب أولا بقوله (قل) .

فلينظر العاقل فى سبب براءتى من الشرك وما أنتم عليه ، واختياري به عداوتكم ، والصبر على أذاكم ، واحتمالى هذه المكاره العظيمة . بعد ما كنتم تعظمونى غاية التعظيم ، وتصفونى بالأمانة ، وتسموني « الأمين » وتفضلونى على غيري ، ونسبى فيكم أفضل نسب وتعرفون ما جعل الله فيّ من العقل والمعرفة ومكارم الأخلاق وحسن المقاصد وطلب العدل والإحسان ، وأنى لا أختار لأحد منكم سوءاً ، ولا أريد أن أصيب أحداً بشر . فاختياري للبراءة مما تعبدون ، وإظهاري لسبهم وشتمهم . أهو سدى ليس له موجب أوجبه ؟ فانظروا فى ذلك . ففي السورة دعاء وبعث للكفار إلى طلب الحق ومعرفته ، مع ما فيها من كمال البراءة منهم .

من معانى سورة الكافرون

ومعانيها كثيرة شريفة يطول وصفها .

وقوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يتناول كل كافر . فهو لا يعبد ما يعبده أحد

من الكفار ، ولا مشركي العرب ، ولا غيرهم من المشركين والكفار أهل الكتاب – لا اليهود ولا النصارى ، ولا غيرهم من أصناف الكفار – وذلك أنه قال: ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، فذكر لفظ « ما » ، ولم يقل:« من تعبدون » . و « ما » تدل على الصفة كما تقدم وما ذكره المهدوي وغيره من أنه قال : ﴿ ما أعبد ﴾ ولم يقل: « من أعبد » – يقابل به ﴿ ولا أنا عابد [ما عبدتم] ﴾ الذى يراد به الأصنام ، فضعيف جداً يغير اللغة ويخص عموم القرآن – وهو عموم مقصود – ويزيل المعنى الذي به تعلقت هذه البراءة .

فإن « ما » فى اللغة إما لما لا يعلم ، ولصفات ما يعلم ، كما في قوله ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ ﴾ [(١)] ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [(٢)] ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰٓ ﴾ [(٣)] : وفى التسبيح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد : « سبحان ما سبحت له » ومثله كثير . فقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ جار على أصل اللغة .

السورة خطاب لكل الكفار

وأيضاً فقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ خطاب للكفار مطلقاً ، فهو لا يعبد الملائكة ولا غير ذلك مما عبد من دون الله – وإن كان ما عبد أهل العلم والعقل – فعبر عن ذواتهم بـ « من » فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم ، وإنما هي براءة من كل شرك .

وكون الرب يتصف بما تتصف به الأصنام من عدم العلم ما لا يجوز عليه ،

---

(١) سورة النساء : ٣ .

(٢) سورة الشمس : ٥ .

(٣) سورة الليل : ٣ .

ولا تصح المقابلة فى مثل ذلك . بل المقصود ذكر الصفات والإخبار بمعبود الرسول والمؤمنين ليتبرأ من معبودهم ويبرئهم من معبوده .

كذب اليهود فى عباداتهم

وإذا قال اليهود : نحن نقصد عبادة الله . كانوا كاذبين ، سواء عرفوا أنهم كاذبون أو لم يعرفوا ، كما يقول النصارى : إنا نعبد الله وحده وما نحن بمشركين ، وهم كاذبون . لأنهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر به ، وهو الشرع ، لا بالمنسوخ المبدل .

وأيضاً فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عندهم رب لم ينزل الإنجيل ولا القرآن ، ولا أرسل المسيح ولا محمداً . بل هو عند بعضهم فقير ، وعند بعضهم بخيل ، وعند بعضهم عاجز ، وعند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه . وعند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله وليسوا رسله ، بل هم كاذبون سحرة . قد أيدهم ونصرهم . ونصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين ، لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس . فالرب الذي يعبدونه هو دائماً ينصر أعداءه .

فهم يعبدون هذا الرب ، والرسول والمؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود . فهو منزه عما وصفت به اليهود معبودها من جهة كونه معبوداً لهم – منزه عن هذه الإضافة . فليس هو معبوداً لليهود . وإنما فى جبلاتهم صفات ليست هي صفاته زينها لهم الشيطان . فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات ، وإنما هو الشيطان .

فالرسول والمؤمنون لا يعبدون شيئاً تعبده اليهود – وإن كانوا يعبدون من يعبدونه . وهذا مما يظهر به فائدة ما ذكرنا .

وعلى هذا فقوله : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ خطاب لجميع الكفار كما دلت عليه الآية . وبهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين والنصارى دون اليهود ، كما فى قول ابن زيد : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ قال للمشركين والنصارى ، واليهود

لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء بما جاءوا به من عند الله ، ويكفرون برسول الله ﷺ وبما جاء به ، وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً . قال : إلا العصابة التى تقول حيث خرج بختنصر ، وقيل : من سموا عزيزاً « ابن الله » ولم يعبدوه . ولم يفعلوا كما فعلت النصارى – قالت : المسيح ابن الله ، وعبدته .

اليهود لا يعبدون الله

فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح ، لكنهم مع هذا لا يعبدون الله ، بل يستكبرون عن عبادته ، ويعبدون الشيطان ، لا يعبدون الله . ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً . فكل من عبد الله كان سعيداً من أهل الجنة ، وكان من عباد الله الصالحين . قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لَّا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (١) .

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إِنَّكَ تَأْتِى قَوْماً هُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، فَأَوَّلُ مَا تَدْعُوهُم ، إِلَيْه شَهَادَةِ أَنْ لَا إِله إِلَّا اللهُ وَأَنْ محمداً رَسُولُ اللهِ (٢) – وفى رواية : « فَادْعُهُمْ إِلى عِبَادَةِ اللهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَعْلِمهُمْ ... » (٣) .

فلا يعبد إلا الله بعد أن أرسل محمداً ، وعرفت رسالته وبلغت . ولهذا اتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة . ولو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم . فإن الله لا يظلم أحداً .

وقبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به . فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله ، إنما يعبد الشيطان ، ويعبد الطاغوت . وقد

---

(١) سورة يس : ٦٠ ، ٦١ .

(٢) مسلم (١٩٦/١) .

(٣) البخارى (١٣٠/٢) ، ومسلم (١٩٩/١) ، والنسائى (٢/٥) ، وابن ماجه (١٧٨٣) .

أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

وهو اسم جنس يدخل فيه الشيطان ، والوثن ، والكهان ، والدرهم والدينار ، وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [١] وقال ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ [٢] – الآية .

عداوة اليهود للمؤمنين

وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى ، وكفرهم أغلظ ، وهم مغضوب عليهم . ولهذا قيل : إنهم تحت النصارى فى النار . واليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى . ولهذا جعل الله النصارى فوقهم إلى يوم القيامة .

فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به . وأما اليهود فلا يعبدون الله ، بل هم معطلون لعبادته ، مستكبرون عنها – كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون – بل هم متبعون أهواءهم ، عابدون للشيطان .

فالنبى والمؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود . وهم وإن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه . وليس فى قلوبهم عبادة له وحده . فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبده بما أمره به .

والسورة لم يقل فيها : « يا أيها المشركون » حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من

---

(١) سورة النساء : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : ١٠١ .

أشرك . بل قال:﴿ يا أيها الكافرون ﴾ فتناولت كل كافر ، سواء كان ممن يظهر الشرك . أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته . والتعطيل شر من الشرك . وكل معطل فلابد أن يكون مشركا .

والنصارى مع شركهم لهم عبادات كثيرة ، واليهود من أقل الأمم عبادة وأبعدهم عن العبادة لله وحده . لكن قد يعرفون ما لا تعرفه النصارى ، لكن بلا عبادة وعمل بالعلم . فهم مغضوب عليهم ، وأولئك ضالون . وكلاهما قد برأ الله منهم رسوله والمؤمنين .

﴿ حكم من علم ولم يعمل بعلمه ﴾

وفي هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود والنصارى بلا عمل بالعلم . ففيهم شبه ، كما قال سفيان بن عيينة (١) : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى .

بل قد قال أبو هريرة : ما أقرب الليلة من البارحة ، أنتم أشبه الناس ببنى إسرائيل . بل فى الحديث الصحيح : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخلتمُوه » . قالوا : الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قال : « فَمَنْ ؟ » وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : « وَمَنْ النَّاس إلا أولئك ؟ » (٢) .

---

(١) هو أبو محمد ، سفيان بن عيينة الهلالى ، ثقة حافظ ، فقيه إمام ، حديثه فى الكتب الستة ، مات سنة ١٩٨ هـ . انظر : التقريب (٣١٢/١) ، التهذيب (١١٧/٤) ، تاريخ بغداد (١٧٤/٩) ، تذكرة الحفاظ (٢٦٢/١) ، شذرات الذهب (٣٥٤/١) ، سير أعلام النبلاء (٤٥٨/٨) وغيرها .

(٢) البخارى (١٢٦/٩) ، ومسلم (٢١٩/١٦) ، والترمذى (٢٢٧١) ، وابن ماجه (٣٩٩٤) ، وأحمد (٣٢٥/٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧) .

وقال : « افْتَرقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَافْتَرقَتْ النصارى على اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ هَذه الأُمَّة عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدةً » [١] .

وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، وبين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه .

ومما يوضح ما تقدم أن قوله:﴿ لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ معناه المعبود . ولكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث . فهو يتناول كل معبود لهم .

والمعبود هو الإله . فكأنه قال : لا أعبد إلهكم ، ولا تعبدون إلهي ، كما ذكر الله فى قصة يعقوب . قال تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيه مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِلهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٢] واسم الإله والمعبود يتضمن إضافة إلى العابد . وقال : ﴿ إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ ، هو الذي يعبده هؤلاء – صلوات الله وسلامه عليهم – ويؤلهونه .

وإنما يعبده من كان على ملتهم ، كما قال يوسف : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ

---

(١) صحيح ، أخرجه أحمد (٣٣٢/٢)، وأبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذى (٢٧٧٨) ، وابن ماجه (٣٩٩١) ، والبيهقى (٢٠٨/١٠) فى السنن الكبرى كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وإسناده حسن .

وله شاهد من حديث عوف بن مالك ، أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) وسنده جيد ، وله شاهد من حديث أنس ، أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) وقال فى الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات ، وله شاهد عند الترمذى (٢٧٧٩) من حديث ابن عمرو ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه .

(٢) سورة البقرة : ١٣٣ .

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ – إلى قوله – ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله . وهي ملة إبراهيم . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ – إلى قوله – فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

اليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم

وإذا كان كذلك فاليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم . وإذا لم يكونوا على ملته لم يكونوا يعبدون إله إبراهيم . فإن من عبد إله إبراهيم كان على ملته ، قال تعالى :﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ – إلى قوله – وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) فقوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يبين أن ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة إبراهيم .

وهذا بعد مبعث محمد مما لا ريب فيه . فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم . والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (٤) وقال : ﴿ قُلْ إنني هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حنيفًا ﴾ (٥) – الآية .

وقال:﴿ ثُمَّ أَوْحَينَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ (٦) .

---

(١) سورة يوسف : ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٠ – ١٣٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٣٥ – ١٣٧ .

(٤) سورة آل عمران : ٦٨ .

(٥) سورة الأنعام : ١٦١ .

(٦) سورة النحل : ١٢٣ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (١) يبين أن كل من رغب عنها فقد سفه نفسه . وفيه من جهة الإعراب والمعنى قولان .

أحدهما – وهو قول الفراء وغيره من نحاة الكوفة واختيار ابن قتيبة وغيره ، وهو معنى قول أكثر السلف – أن النفس هي التي سفهت . فإن « سفه » فعل لازم لا يتعدى ، لكن المعنى : إلا من كان سفيهاً فجعل الفعل له ونصب النفس على التمييز لا النكرة ، كقوله : ﴿ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ (٢) .

وأما الكوفيون فعرفوا هذا وهذا . قال الفراء : نصب النفس على التشبيه بالتفسير ، كما يقال : ضقت بالأمر ذرعا ، معناه : ضاق ذرعي به . ومثله ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ ، أي اشتعل الشيب في الرأس . قال : ومنه قوله : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره . وكان الأصل : سفهت نفس زيد ، ورشد أمره ، فلما حول الفعل إلى زيد انتصب ما بعده على التمييز .

فهذه شواهد عرفها الفراء من كلام العرب . ومثله قوله : غبن فلان رأيه ، وبطر عيشه . ومثل هذا قوله : ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ (٣) ، أي بطرت نفس المعيشة . وهذا معنى قول يمان بن رباب : حمق رأيه ونفسه ، وهو معنى قول ابن السائب : ضل من قبل نفسه ، وقول أبي روق (٤) : عجز رأيه عن نفسه .

والبصريون لم يعرفوا ذلك . فمنهم من قال : جهل نفسه ، كما قاله ابن كيسان (٥) ، والزجاج . قال : لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٠ .

(٢) سورة مريم : ٤ .

(٣) سورة القصص : ٥٨ .

(٤) هو عطيه بن الحارث ، أبو روق ، بفتح الراء ، وسكون الواو ، بعدها قاف ، الهمدانى ، الكوفى ، صاحب التفسير ، صدوق ، أخرج له أبو داود والنسائى ، وابن ماجه ، انظر : التهذيب (٢٢٤/٧) ، التقريب (٢٤/٢) .

(٥) هو أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن كيسان ، من تلاميذ المبرد ، وكانت له اليد الطولى فى تعليم النحو ، من مؤلفاته : (تلقيب القوافى) ، و (شرح المعلقات) ، مات سنة ٢٩٩ هـ
انظر : تاريخ بغداد : (٣٢٥/١) ، مرآة الجنان : (٢٣٦/٢) ، نزهة الألباء : (٣٠١) .

وهذا الذي قالوه ضعيف . فإنه إن قيل إن المعنى صحيح فهو إنما قال (سفه) ، و « سفه » فعل لازم ، ليس بمتعد ، و « جهل » فعل متعد . وليس في كلام العرب « سفهت كذا » ألبتة بمعنى : جهلته . بل قالوا : سفه – بالضم – سفاهة ، أي صار سفيها ، وسفه – بالكسر – أي حصل منه سفه ، كما قالوا في « فقه وفقه » . ونقل بعضهم : سفهت الشرب إذا أكثرت منه . وهو يوافق ما حكاه الفراء ، أي صار شربه سفيهاً ، فسفه شربه لما جاوز الحد .

وقال الأخفش ، ويونس : نصب بإسقاط الخافض ، أي سفه فى نفسه . وقولهم « بإسقاط الخافض » ليس هو أصلا فيعتبر به ، ولكن قد تنزع حروف الجر فى مواضع مسموعة ، فيتعدى الفعل بنفسه . وإن كان مقيساً فى بعض الصور . فـ « سفه » ليس من هذا ، لا يقال : سفهت أمر الله ، ولا دين الإسلام ، بمعنى : جهلته ، أي سفهت فيه . وإنما يوصف بالسفه وينصب على التمييز ما خص به ، مثل نفسه أو شربه ، ونحو ذلك .

حكم من رغب عن ملة إبراهيم

والمقصود أن كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه . قال أبو العالية : رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية ، وليست من الله ، وتركوا دين إبراهيم . وكذلك قال قتادة : بدلوا دين الأنبياء واتبعوا المنسوخ .

فأما موسى والمسيح ومن اتبعهما فهم على ملة إبراهيم متبعون له ، وهو إمامهم . وهذا معنى قوله : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوُه وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ [1] . فهو يتناول الذين اتبعوه قبل مبعث محمد وبعد مبعثه . وقيل إنه عام ، قال الحسن البصري [2] : كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقى . وقال الربيع

---

(١) سورة آل عمران : ٦٨ .

(٢) هو أبو سعيد ، الحسن بن أبى الحسن ، التابعى الجليل ، ثقة فاضل ، فقيه ، رأس أهل الطبقة الثانية حديثه فى الكتب الستة ، مات سنة ١١٠ هـ . انظر : تذكرة : (٧١/١) ، التهذيب : (٢٦٣/٢) ، الحلية : (١٣١/٢) ، الميزان (٥٢٧/١) ، شذرات : (١٣٦/١) ، وفيات الأعيان : (١٢٨/١) ، طبقات القراء : (٢٣٥/١) وغيرها .

ابن أنس [١] : هم المؤمنون الذين صدقوا نبى الله واتبعوه ، وكان محمد والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم . وهذا وغيره مما يبين أن اليهود والنصارى لا يعبدون الله ، وليسوا على ملة إبراهيم .

فإن قيل : فالمشرك يعبد الله وغيره بدليل قول الخليل : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٭ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٭ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ [٢] . فقد استثناه مما يعبدون ، فدل على أنهم كانوا يعبدون الله . وكذلك قوله : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٭ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِى ﴾ [٣] ، واستثناه أيضاً . وفى المسند وغيره حديث حصين الخزاعى لما قال له النبى ﷺ : « يَا حُصَيْنُ ! كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ ؟ قال : سَبْعَةَ آلِهةٍ : سِتَّةً في الأَرْضِ ، وَوَاحِدًا فى السَّمَاءِ . قال : فَمَنْ الَّذى تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبتِكَ ؟ قال : الَّذِي فى السَّمَاءِ » [٤] .

قيل : هذا قول المشركين ، كما تقول اليهود والنصارى : نحن نعبد الله . فهم يظنون أن عبادته مع الشرك به عبادة ، وهم كاذبون فى هذا .

وأما قول الخليل [٥] ففيه قولان : قالت طائفة : إنه استثناء منقطع . وقال عبد الرحمن بن زيد [٦] : كانوا يعبدون الله مع آلهتهم .

---

(١) هو الربيع بن أنس البكرى ، أخرجه له أصحاب السنن الأربعة ، صدوق ، مات سنة ١٤٠ هـ . انظر : التهذيب : (٣/٢٣٨) ، التقريب : (١/٢٤٣) ، معرفة الثقات : (٤٤٨) .

(٢) سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧ .

(٣) سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) إسناده حسن لغيره ، أخرجه الترمذى (٣٥٥٠) وقال : حسن غريب ، والطبرانى (٣٩٦) فى الكبير ، وسنده ضعيف لعنعنة الحسن البصرى ، وللانقطاع ، ولكن له شاهد أخرجه أحمد (٤/٤٤٤) من حديث حصين .

(٥) هو أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد الفراهيدى ، المؤسس الحقيقى لعلم النحو العربى ، وهو مبتكر علم العروض ، من مؤلفاته : كتاب (العين) فى اللغة ، و (شرح صرف الخليل) ، كتاب فى (معانى الحروف) ، مات سنة ١٧٥ هـ وقيل غير ذلك . انظر : مرآة الجنان : (١/٣٠٣) ، النجوم الزاهرة : (١/٣١١) ، شذرات : (١/٢٧٥) ، التهذيب : (٣/١٦٣) ، وغيرها .

(٦) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، كان صاحب قرآنٍ وتفسيرٍ ، جمع تفسيراً فى مجلد ، وكتاباً فى الناسخ والمنسوخ ، مات سنة ١٨٢ هـ . انظر : التهذيب : (٦/١٧٨) ، شذرات : (١/٢٩٧) ، الميزان : (٢/٥٦٥) ، المجروحين : (٢/٥٧) ، وغيرها .

وعلى هذا فهذا لفظ مقيد . فإنه قال:﴿ ما تعبدون ﴾ . فسماه عبادة إذا عرف المراد ، لكن ليست هي العبادة التى هي عند الله عبادة . فإنه كما قال تعالى : « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ . مَنْ عَمَلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِى فَأَنَا مِنه بَرِىءٌ ، وَهُوَ كُلُّه للَّذِى أَشْرَكَ » (١) . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾ (٢) . سماه إيماناً مع التقييد ، وإلا فالمشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر لا يدخل فى مسمى الإيمان عند الإطلاق . وقد قال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (٣) ، ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤) . فهذا مع التقييد . ومع الإطلاق فالإيمان هو الإيمان بالله ، والبشارة بالخير .

وقوله:﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ نفي العبادة مطلقاً . ليس هو نفي لما قد يسمى عبادة مع التقييد . والمشرك إذا كان يعبد الله ويعبد غيره فيقال : إنه يعبد الله وغيره ، أو يعبده مشركاً به . لا يقال : إنه يعبد مطلقاً . والمعطل الذي لا يعبد شيئاً شر منه . والعبادة المطلقة المعتدلة هى المقبولة ، وعبادة المشرك ليست مقبولة .

ومما يوضح هذا قوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ (٥) الآية . قالوا فيها:﴿ نَعْبُد إِلٰهَكَ وَإِلَهَ آبائكَ ﴾ . ثم قالوا : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ . فهذا بدل من الأول في أظهر الوجهين . فإن النكرة تبدل من المعرفة . كما في قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٦) ، فذكرت معرفة ، وموصوفة . كذلك قالوا : ﴿ نعبد إلهك ﴾ فعرفوه ، ثم قالوا:﴿ ألهاً واحداً ﴾ فوصفوه . والبدل في حكم تكرير العامل أحياناً ، كما في قوله : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ

---

(١) مسلم (١١٥/١٨) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) .

(٢) سورة يوسف : ١٠٦ .

(٣) سورة النساء : ٥١ .

(٤) سورة آل عمران : ٢١ ، والتوبة : ٣٤ ، والإنشقاق : ٢٤ .

(٥) سورة البقرة : ١٣٣ .

(٦) سورة العلق : ١٥ ، ١٦ .

لِمَنْ آمَن مِنْهُمْ ﴾ (١) فالتقدير : نعبد إلهك ، نعبد إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون . فجمعوا بين الخبرين بأمرين – بأنهم يعبدون إلهه ، وأنهم إنما يعبدون إلهاً واحداً – فمن عبد إلهين لم يكن عابداً لإلهه وإله آبائه . وإنما يعبد إلهه من عبد إلهاً واحداً .

ولو كان من عبد الله وعبد معه غيره عابداً له لكانت عبادته نوعين – عبادة إشراك ، وعبادة إخلاص – وإذا كان كذلك لم يكن قوله:﴿ إلهاً واحداً ﴾ بدلاً . لأن هذا كل من كل . ليس هو بدل بعض من كل . فعلم أن إلهه وإله آبائه لا يكون إلا إلهاً واحداً

والوجه الثانى : قوله ﴿ إلهاً واحداً ﴾ نصب على الحال ، لكنها حال لازمة فإنه لا يكون إلا إلهاً واحداً ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾ (٢) وهو لا يكون إلا مصدقاً . ومنه : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ (٣) ، ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (٤) . فمن عبد معه غيره فما عبده إلهاً واحداً ، ومن أشرك به فما عبده . وهو لا يكون إلا إلهاً واحداً . فإذا لم يعبده فى الحال اللازمة له لم تكن له حال أخرى يعبده فيها ، فما عبده .

فإن قيل : المشرَك يجعل معه آلهة أخرى ، فهو يعبد فى حال ليس هو فيها الواحد ، قيل : هذا غلط منشؤه أن لفظ « الإله » يراد به المستحق للإلهية ، ويراد به ما اتخذه الناس إلهاً وإن لم يكن إلهاً فى نفس الأمر ، بل هي أسماء سموها هم وآباؤهم . فتلك ليست فى نفسها آلهة ، وإنما هي آلهة فى أنفس العابدين . فإلهيتها أمر قدره المشركون ، وجعلوه فى أنفسهم من غير أن يكون مطابقاً للخارج ، كالذي يجعل من ليس بعالم عالماً ، ومن ليس بحي حيا ، ومن ليس بصادق ولا عدل صادقا وعدلا فيقال : هذا عندك صادق ، وعادل ، وعالم ، وتلك اعتقادات غير مطابقة ، وأقوال كاذبة غير لائقة .

---

(١) سورة الأعراف : ٧٥ .
(٢) سورة البقرة : ٩١ .
(٣) سورة البقرة : ١٣٥ ، وآل عمران : ٩٥ ، والنساء : ١٢٥ ، والأنعام : ١٦١ ، والنحل : ١٢٣ .
(٤) سورة آل عمران : ٢١ .

ولهذا يجعل سبحانه ذلك من باب الإفتراء والكذب . كما قال أصحاب الكهف : ﴿ هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً . لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ [1] . وقال الخليل : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [2] . وقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [3] أي أيّ شيء يتبع الذين يشركون ؟ وإنما يتبعون الظن والخرص ، وهو الحزر . هذا صواب ، وأن ما استفهامية . وقد قيل إنها نافية ، وبعضهم لم يذكر غيره ، كأبي الفرج . وهو ضعيف كما قد بين ذلك في غير هذا الموضع .

وقال هود : ﴿ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [4] .

وإذا كانت إلهية ما سوى الله أمراً مختلفاً يوجد في الذهن واللسان لا وجود له فى الأعيان . وهو من باب الكذب والاعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق . وما عند عابديها من الحب والخوف والرجاء لها تابع لذلك الاعتقاد الباطل . كمن اعتقد فى شخص أنه صادق فصدقه فيما يقول ، وبنى على إخباره أعمالا كثيرة . فلما تبين كذبه ظهر فساد تلك الأعمال كأتباع مسيلمة ، والأسود ، وغيرهما من أصحاب الزوايا والترهات . وما يشرعونه لأتباعهم مما لم يأذن به الله ، بخلاف الصادق والصدق .

ولهذا كانت كلمة التوحيد : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴾ [5] . وقال فى كلمة الشرك : ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [6] . فليس [لها] أساس ثابت . ولا فرع ثابت . إذ كانت باطلة . كأقوال الكاذبين وأعمالهم . بل هي أعظم الكذب والافتراء مع الحب لها .

---

(١) سورة الكهف : ١٥ .
(٢) سورة العنكبوت : ١٧ .
(٣) سورة يونس : ٦٦ .
(٤) سورة هود : ٥٠ .
(٥) سورة إبراهيم : ٢٤ .
(٦) سورة إبراهيم : ٢٦ .

الشرك أعظم الظلم

والشرك أعظم الظلم . قال ابن مسعود . قلت : يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لله نداً وَهُوَ خَلَقَكَ » (١) .

فنفس تألههم لها ، وعبادتهم إياها ، وتعظيمها ، وحبها ودعائها ، واعتقادها آلهة ، والخبر عنها بأنها آلهة موجود ، كما كان اعتقاد الكذابين موجوداً . وأما نفس اتصافها بالإلهية فمفقود ، كاتصاف مسيلمة بالنبوة .

فهنا حالان – حال للعابد ، وحال للمعبود . فأما العابدون فكلهم فى قلوبهم عبادة وتأله لمن عبدوه . وأما المعبودون فالرحمن له الإلهية ، وما سواه لا إلهية له . بل هو ميت لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعا . ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (٢) وهو فى أصح القولين ﴿ سبيلا ﴾ بالتقرب بعبادته وذكره ولهذا قال بعدها ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (٣) فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده . وقد بسط هذا في موضع آخر .

فقوله : ﴿ نعبد إلهك إلها واحداً ﴾ إذا قيل إنه منصوب على الحال ، فإما أن يكون حالاً من الفاعل العابد ، أو من المفعول المعبود . فالأول : نعبده فى حال كوننا مخلصين لا نعبد إلا إياه . والثانى نعبده فى الحال اللازمة له ، وهو أنه إله واحد ، فنعبده مخلصين معترفين له بأنه الإله وحده دون ما سواه .

---

(١) البخارى (٦/٢٢) ، ومسلم (٢/٨٠) ، وأبو داود (٢٣١٠) ، والترمذى (٣٢٣٤) ، (٣٢٣٥) ، والنسائى (٧/٨٩ ، ٩٠) ، وأحمد (١/٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤) .

(٢) سورة الإسراء : ٤٢ .

(٣) سورة الإسراء : ٤٤ .

فإن كان التقدير هذا الثانى امتنع أن يكون المشرك عابداً له . فإنه لا يعبده فى هذه الحال ، وهو سبحانه ليست له حال أخرى نعبده فيها . وإن كان التقدير الأول فقد يمكن أن نعبده في حال أخرى تتخذ معه آلهة أخرى فى أنفسنا .

لكن قوله:﴿ إلها واحداً ﴾ دليل على أنها حال من المعبود ، بخلاف ما إذا قيل : نعبده مخلصين له الدين ، فإن هذه حال من الفاعل .

ولهذا يأتى هذا فى القرآن كثيراً ، كقوله : ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ [(١)] ، وقوله : ﴿ قُلْ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ [(٢)] . فهذا حال من الفاعل فإنه يكون تارة مخلصاً . وتارة مشركاً . وأما الرب تعالى فإنه لا يكون إلا إلها واحداً .

والحال وإن كانت صفة للمفعول فهي أيضا حال للفاعل . فإنهم قالوا : نعبده فى هذه الحال . لزم أن عبادتهم له ليست في غير هذا الحال . وبين أن قوله :﴿ نعبد إلهك واله آبائك ... إلها واحداً ﴾ هي حال متعلقة بالفاعل والمفعول جميعا – بالعابد والمعبود – فإن العامل فيها – المتعلق بها – العبادة ، وهي فعل العابد ، والذي يقال له المفعول فى العربية هو المعبود .

كما قيل فى الجملة:﴿ ونحن له مسلمون ﴾ . قيل : هي واو العطف ، وقيل واو الحال أي نعبده فى هذه الحال . قالوا : وهي حال من فاعل « نعبد » أو مفعوله لرجوع الهاء إليه فى « له » ، وهذا الترديد غلط ، إذ هي حال منهما جميعاً . فإنهم إذا عبدوه وهم مسلمون فهم مسلمون حال كونهم عابدين ، وحال كونه معبوداً ، إذ كونهم عابدين وكونه معبوداً ليس مختصاً بمقارنة أحدهما دون الآخر .

فالظرف والحال هنا كلمة وليست مفرداً ، ولهذا اشتبه عليهم . فإن المفرد لا يمكن أن يكون فى اللفظ صفة لهذا وهذا . فإذا قلت : ضربت زيداً قاعداً ،

---

(١) سورة الزمر : ٢ .

(٢) سورة الزمر : ١٤ .

فالقعود حال للفاعل أو المفعول . وإذا قلت : ضربته والناس قعود ، فليس هذه الحال من أحدهما دون الآخر ، بل هي مقارنة للضرب المتعلق بها ، كأنه قال : ضربته فى زمان قعود الناس ، فهو ظرف للفعل المتعلق بالفاعل والمفعول ، بخلاف ما إذا قلت : ضربته فى حال قعودى أو قعوده ، فهذا يختلف .

والآية فيها ﴿ إلهاً واحداً ﴾ . فهذه حال من المعبود بلا ريب . فلزم أنهم إنما عبدوه فى حال كونه إلهاً واحداً ، وهذه لازمة له .

وإذا قيل ، المراد : فى حال كونه معبوداً واحداً لا نتخذ معه معبوداً آخر ، فهذه حال ليست لازمة ، لكنه صفة للعابدين ، لا له . قيل : هذا ليس فيه مدح له ، ولا وصف له بأنه يستحق الإلهية . لكن فيها وصفهم فقط .

وأيضاً فقوله ﴿ إلها واحداً ﴾ كقوله ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ فهو في نفسه إله واحد وإن جعل معه المشركون آلهة بالافتراء والحب . فيجب أن يكون المراد ما دل عليه هذا الاسم .

ولو أرادوا ذلك المعنى لقالوا : نعبده مخلصين له الدين . وهذا المعنى قد ذكروه فى الجملة الثانية . وهي قولهم:﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ، لاسيما إذا جعلت حالا ، أي نعبده إلها واحداً فى حال إسلامنا له . وإسلامهم له يتضمن إخلاص الدين له ، وخضوعهم ، واستسلامهم لأحكامه ، بخلاف غير المسلمين .

ولهذا قال آمراً للمؤمنين أن يقولوا : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ . وَمَآ أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَآ أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ . وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ثم قال ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً . وَنَحْنُ لَه عَابِدُونَ ۝ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٦

(٢) سورة البقرة : ١٣٨ ، ١٣٩ .

وفي هذه الآيات معان جليلة ليس هذا موضع استيفائها .

فصـــل

وهذا النزاع في قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ هل هو خطاب لجنس الكفار كما قاله الأكثرون ، أو لمن علم أنه يموت كافراً كما قاله بعضهم ، يتعلق بمسمى « الكافر » ومسمى « المؤمن » .

فطائفة تقول : هذا إنما يتناول من وافى القيامة بالإيمان . فاسم المؤمن عندهم إنما هو لمن مات مؤمناً . فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم بإيمان .

وهذا اختيار الأشعري (١) ، وطائفة من أصحاب أحمد ، وغيرهم . وهكذا يقال : الكافر [من] مات كافراً .

وهؤلاء يقولون : إن حب الله وبغضه ، ورضاه وسخطه ، وولايته وعداوته ، إنما يتعلق بالموافاة فقط . فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً ، ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاة قديمة . ويقولون : إن عمر حال كفره كان ولياً لله .

وهذا القول معروف عن ابن كُلَّاب (٢) ومن تبعه ، كالأشعري وغيره .

وأكثر الطوائف يخالفونه في هذا ، فيقولون : بل قد يكون الرجل عدواً ، ثم يصير ولياً لله ببغضه ثم بحبه . وهذا مذهب الفقهاء والعامة . وهو قول المعتزلة ، والكرامية ، والحنفية قاطبة ، وقدماء المالكية ، والشافعية ، والحنبلية .

---

(١) هو أبو الحسن ، على بن إسماعيل الأشعرى ، يعد مؤسس علم الكلام عند أهل السنة ، من مؤلفاته : (مقالات الإسلاميين) ، (اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع) . وغيرها ، مات سنة ٣٢٤ هـ . وقيل غير ذلك ، انظر : تاريخ بغداد : (٢٤٥/٢) ، البداية والنهاية : (١٨٧/١١) ، شذرات الذهب : (٣٠٣/٢) ، الأعلام للزركلى : (٦٩/٥) وغيرها .

(٢) هو أبو محمد ، عبد الله بن سعيد ، البصرى ، يعد من معارضى المعتزلة ، ومع ذلك فليس هناك اتفاق على أنه من أهل السنة ، وسمى الشهرستانى أتباعه « المتكلمين من السلف » توفى حوالى سنة ٢٤٠ هـ . انظر : اللسان : (٢٩٠/٣) ، طبقات الشافعية للسبكى : (٥١/٢) ، المشتبه للذهبى (٥٥٥) ، معجم المؤلفين لكحالة : (٥٩/٦) وغيرها .

وعلى هذا يدل القرآن . كقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [١] ، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [٢] . وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ [٣] . فوصفهم بكفر بعد إيمان ، وإيمان بعد كفر . وأخبر عن الذين كفروا أنهم كفار ، وأنهم إن انتهوا يغفر لهم ما قد سلف . وقال : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [٤] وقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [٥] .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : تقول الأنبياء : « إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ . وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ » [٦] .

وفى دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره : « فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضاً . وإلا فمن الآن فارض عني » . وبعضهم حذف « فارض عني » ، فظن بعض الفقهاء أنه « فمن الآن » أنه من « المن » . وهو تصحيف . وإنما هو من حروف الجر كما فى تمام الكلام وإلا فمن الآن فارض عنى .

فبين أنه يزداد رضاً ، وأنه يرضى فى وقت محدود . وشواهد هذا كثيرة . وهو مبسوط فى مواضع .

فصـــل

ونظير القول في : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ القولان فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٧] فإن للناس فى هذه الآية قولين .

---

(١) سورة آل عمران : ٣١ .
(٢) سورة الزمر : ٧ .
(٣) سورة النساء : ١٣٧ .
(٤) سورة الزخرف : ٥٥ .
(٥) سورة محمد : ٢٨ .
(٦) البخارى (١٦٤/٤) ، ومسلم (٦٧/٣) ، والترمذى (٢٥٥١) ، وأحمد (٤٣٥/٢ ، ٤٣٦) .
(٧) سورة البقرة : ٦ .

أحدهما : أنها خاصة بمن يموت كافراً ، وهذا منقول عن مقاتل ، كما قال في قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ . وكذلك نقل عن الضحاك [١] قالا : نزلت فى مشركي العرب . كأبي جهل ، وأبى طالب ، وأبى لهب ، ممن لم يسلم . وقال الضحاك : ونزلت في أبى جهل وخمسة من أهل بيته .

وطائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول ، كالثعلبى [٢] والبغوي وابن الجوزى . قال البغوي : هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة فى سابق علم الله .

وقال ابن الجوزي ، قال شيخنا على بن عبيد الله : وهذه الآية وردت بلفظ العموم والمراد بها الخصوص ، لأنها آذنت بأن الكفار حين إنذارهم لا يؤمنون ، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم . ولو كانت على ظاهرها فى العموم لكان خبر الله بخلاف مخبره ، فلذلك وجب نقلها إلى الخصوص .

والقول الثانى : إن الآية على مقتضاها ، والمراد بها أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الكافر ما دام كافراً . لا ينفعه الإنذار ولا يؤثر فيه ، كما قيل مثل ذلك في الآيات إنها غير موجبة للإيمان . وقد جمع بينهما فى قوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآياتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] .

فالآيات أفقية ، وأرضية ، وقرآنية ، وهي أدلة العلم . والإنذار يقتضي الخوف

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم ، أبو محمد ، صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم ، أخرج له أصحاب السنن الأربعة ، مات بعد سنة ١٠٠ هـ . انظر : شذرات : (١٢٤/١) ، التهذيب : (٤٥٣/٤) ، العبر : (١٢٤/١) ، الميزان : (٣٢٥/٢) ، وغيرها .

(٢) هو أبو إسحاق ، أحمد بن محمد ، الإمام الحافظ ، شيخ التفسير ، كان أحد أوعية العلم ، له كتاب : « التفسير الكبير » مخطوطة ، وكتاب : « عرائس المجالس » مطبوع ، توفى سنة ٤٢٧ هـ . انظر : تذكرة الحفاظ : (١٠٩٠/٣) ، العبر : (١٦١/٣) ، وفيات الأعيان : (٧٩/١) .

(٣) سورة يونس : ١٠١ .

فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به ، فهذا تنفعه الحكمة . والإنذار لمن يعرف الحق وله هوى يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه ، وهو خوف العذاب . وهذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة ، وآخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل ، فيجادل بالتي هي أحسن .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الموْتَى ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ [١] ، وقال:﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [٢] ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ ﴾ [٣] .

فالمراد أن الكافر ما دام كافراً لا يقبل الحق سواء أُنذر أو لم يُنذر ، ولا يؤمن ما دام كذلك . لأن علي قلبه وسمعه وبصره موانع تصد عن الفهم والقبول . وهكذا حال من غلب عليه هواه .

وهو سبحانه لم يقل « إنهم لا يؤمنون » . وقيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة ، أو حقت عليه الكلمة ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [٤] فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم . كإيمان فرعون المذكور قبلها ، وموسى قد دعا عليه فقال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُما ﴾ [٥] .

وأما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمِ الملائِكَةَ ﴾ [٦] – الآية . فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء .

---

(١) سورة الأنعام : ١١١ .
(٢) سورة النازعات : ٤٥ .
(٣) سورة يٓس : ١١ .
(٤) سورة يونس : ٩٦ ، ٩٧ .
(٥) سورة يونس : ٨٨ ، ٨٩ .
(٦) سورة الأنعام : ١١١ .

وآية البقرة مطلقة عامة . فإنه ذكر فى أول السورة أربع آيات فى صفة المؤمنين . وآيتين فى صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في المنافقين . فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التى على قلبه وسمعه وبصره . وليس قال : إن الله لا يهدي أحداً من هؤلاء ، فيسمع ويقبل . ولكن هو حين يكون كافراً لا تتناوله الآية . وهذا كما يقال فى الكافر الحربى : لا يجوز أن تعقد له الذمة ، ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربياً .

فالكفار ما داموا كفاراً هم بهذه المثابة . لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك ، وإن أُنذروا . وهذا كقوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [١] فهذا مثل كل كافر ما دام كافراً .

وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون ؛ إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فإنهم لا يسمعون ، لذلك المعنى المشتق منه ، وهو الكفر . فما داموا هذه حالهم فهم كذلك ، ولكن تغير الحال ممكن ، كما قال : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ ﴾ ، وكما هو الواقع .

ومثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس ، وأن الداعى وإن كان صالحاً ناصحاً مخلصاً فقد لا يستجيب المدعو – لا لنقص في الدعاء لكن لفساد فى المدعو – .

وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل ، كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه – لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك . والنفخ يؤثر إذا كان هناك قابل – لا يؤثر في الرماد .

والدعاء ، والتعليم ، والإرشاد . وكل ما كان من هذا الجنس ، له فاعل وهو

---

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

المتكلم بالعلم والهدى والنذارة ، وله قابل وهو المستمع . فإذا كان المستمع قابلا حصل الإنذار التام ، والتعليم التام . والهدى التام . وإن لم يكن قابلا قيل : علمته فلم يتعلم ، وهديته فلم يهتد ، وخاطبته فلم يصغ ، ونحو ذلك .

فقوله في القرآن : ﴿ هُدىً لِلْمُتَقِينَ ﴾ [١] هو من هذا . إنما يهتدي من يقبل الاهتداء . وهم المتقون ، لا كل أحد . وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم ، بل قد يكونوا كفاراً . لكن إنما يهتدي به من كان متقياً فمن اتقى الله اهتدى بالقرآن . والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن .

وهكذا قوله : ﴿ لِّيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ [٢] الإنذار التام ، فإن الحي يقبله . ولهذا قال : ﴿ وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٣] فهم لم يقبلوا الإنذار .

ومثله قوله : ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [٤] .

وعكسه قوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ ﴾ [٥] ، أي كل من ضل به فهو فاسق . فهو ذم لمن يضل به ، فإنه فاسق . ليس أنه كان فاسقاً قبل ذلك .

ولهذا تأولها سعد بن أبي وقاص في الخوارج ، وسماهم « فاسقين » لأنهم ضلوا بالقرآن . فمن ضل بالقرآن فهو فاسق .

فقوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ من هذا الباب . والتقدير : من ختم على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشاوة فسواء عليك أنذرته أم لم تنذره هو لا يؤمن ، أي ما دام كذلك .

---

(١) سورة البقرة : ٢ .

(٢) سورة يس : ٧٠ .

(٣) سورة يس : ٧٠ .

(٤) سورة النازعات : ٤٥ .

(٥) سورة البقرة : ٢٦ .

ولكن هذا قد يزول – وفى صفة النبى ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (١) وَحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ . أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ « المتوكل » ، لَستَ بِفَظٍ ، وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ . وَلَا يجزى بالسَّيئة السيئةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيغفر . وَلَنْ أَقبضَهُ حَتَّى أُقيمَ بِهِ المِلَّةَ الْعَوْجاءَ ، فَأَفتح [به] أَعْيُناً عُمْياً وَآذَاناً صُمّاً وَقُلُوباً غُلْفاً (٢) .

وقد قال ﴿ لِتنذِرَ قَوْماً مَا أُنذرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) فدل على أن بعضهم يؤمنون . ثم قال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً – إلى قوله – إِنَّمَا تُنذِرُ مَن اتَّبَعَ الذِّكْرِ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ ﴾ (٤) . فهذا هو الإنذار التام ، وهو الإنذار الذي يقبله المنذر وينتفع به .

وقوله ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ (٥) هو أصل الإنذار كما يقال فى البليد والمشغول الذهن بأمور الدنيا والشهوات : سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم ولا يقبل الهدى ، ويقال فى الذكى الفارغ : إنما يتعلم مثل هذا ، ثم المشغول قد يتفرغ . وقد يصلح ذهن بعد فساده ، ويفسد بعد صلاحه لفساد قلبه وصلاحه .

وعلى هذا القول أكثر تفسير السلف ، كما ذكره ابن إسحاق ، وقد رواه ابن

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٥ .

(٢) البخارى (١٦٩/٦ – ١٧٠) ، والدارمى (٤/١ – ٥) ، وأحمد (١٧٤/٢) .

(٣) سورة يس : ٦ .

(٤) سورة يس : ٨ – ١١ .

(٥) سورة البقرة : ٦ .

(٦) هو أبو بكر ، المطلبى ، محمد بن إسحاق ، إمام المغازى ، صدوق ، أخرج له مسلم والأربعة ، مات سنة ١٥٠ هـ . انظر : التهذيب : (٣٨/٩) ، الميزان : (٤٧٥/٣) سير أعلام النبلاء : (٤٧/٧) ، الوافى بالوفيات : (١٨٨/٢) ، معرفة الثقات : (١٥٧١) .

أبي حاتم وغيره . قال ابن إسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير . عن ابن عباس : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بما أُنزل إليك ، وإن قالوا : إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، أي إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك . فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً ؟

فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم وما جاءهم من الحق . ومعلوم أن منهم خلقاً تابوا بعد ذلك وآمنوا .

وروى عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية [١] قال : آيتان فى قادة الأحزاب :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] . قال : هم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [٣] .

(قلت) : جعلهم قادة الأحزاب لكونهم أضلوا الأتباع فأحلوهم دار البوار . والأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قادتها ، وحسن إسلامهم ، مثل عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وأبي سفيان . وهؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح ، وهم الطلقاء . ومنهم من أسلم قبل ذلك . والحزب الآخر غطفان ، وقد أسلموا أيضاً .

والآية لابد أن تتناول كفار أهل الكتاب ، كما قال ابن إسحق . فإن السورة مدنية ، وإن تناولت مع ذلك المشركين . فهي تعم كل كافر . ومقاتل ، والضحاك . يخصها ببعض مشركي العرب . وابن السائب يقول : هي إنما نزلت فى اليهود ، منهم

---

(١) هو رفيع بن مهران ، تابعي جليل ، ثقة ، حديثه فى الكتب الستة ، مات سنة ٩٠ هـ . انظر : التهذيب : (٢٨٤/٣) ، طبقات القراء للذهبي : (٤٩/١) ، التقريب : (٢٥٢/١) .

(٢) سورة البقرة : ٦ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٨ .

حيي بن أخطب . وكذلك ما ذكره ابن إسحق ، عن ابن عباس ، أنها في اليهود . وأبو العالية يقول : إنها نزلت في قادة الأحزاب .

والآية تعم هؤلاء كلهم وغيرهم ، كما أن آيات المؤمنين والمنافقين كان سبب نزولها [المؤمنين والمنافقين الموجودين وقت النزول ، وهي تعمهم] وغيرهم من المؤمنين والمنافقين إلى قيام الساعة .

والمقصود أن قوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَوْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كقوله :﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِم ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

وكل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك وتبليغك وحرصك على هداهم ليس موجب ذلك ، وإنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم للإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ (٣) ففيه تعزية لرسوله ﷺ ، وبينت الآية له أن تبليغك وإن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك .

وفيه بيان أن الهدى هدى الله . فـ ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِداً ﴾ (٤) وقد قال له : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (٥) . ففيه تقرير التوحيد ، وتقرير مقصود الرسالة .

---

(١) سورة الروم : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة يونس : ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) سورة النحل : ٣٧ .

(٤) سورة الكهف : ١٧ .

(٥) سورة القصص : ٥٦ .

وهو سبحانه أخبر عمن لا يؤمن فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ (١) . وقال : ﴿ لتنذر قوماً مَا أُنذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ حَق القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) . فخص في هذه الآية ، وفي تلك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ . وهم الذين حق عليهم القول ، أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه ، وكتبه . وقدره . فجعل الموجب هو التقدير السابق ، وهو قوله .

والقول وإن كان قد يكون خبراً مجرداً بما سيكون ، وقد يكون قولا يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض والمنع . فقد ذكر في مواضع تقدم اليمين . كقوله :﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلِكنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى ﴾ (٤) ونحو ذلك .

فهو خبر عما قاله ، أو قاله وكتبه . وهو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعله ، وعلمه ، وكتبه ، كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . والقدر تضمن علمه بما سيكون ، ومشيئته لوجود ما قدره وعلم أن سيخلقه .

والقول قد يكون خبراً ، وقد يكون فيه معنى الطلب – الحض والمنع – بالقسم ، وإما لكتابته على نفسه ، كقوله : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ (٥) ، وقوله:﴿ وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصرُ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) وقوله : « ياعِبَادِي ! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا » (٧) .

---

(١) سورة يونس : ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) سورة يس : ٦ .
(٣) سورة يس : ٧ .
(٤) سورة السجدة : ١٣ .
(٥) سورة الأنعام : ٥٤ .
(٦) سورة الروم : ٤٧ .
(٧) مسلم (١٣٢/١٦ ، ١٣٣) .

وأما قوله : ﴿ وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العذابِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [١] ، فهذا مختص بالكفار . وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال ، كما قال تعالى لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٢] .

وقوله ﴿ وَلَوْلَا كَلِمةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [٣] أي إن عذابهم له أجل مسمى ، إما يوم القيامة ، وإما فى الدنيا كيوم بدر ، وإما عقب الموت – وقد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة – فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لزاماً ، أي لازماً لهم . فإن المقتضى له قائم تام ، وهو كفرهم .

وإما إذا أطلق القول على الكفار من غير تقييد فإنه لا يريد من [لا] يؤمن منهم . فإن اللفظ لا يدل على ذلك ألبتة .

وأيضاً فإن هذا لا فائدة فيه ، إذ كان أولئك غير معروفين ، وإنما هم طائفة قد حق عليهم القول ، وهم لا يتميزون من غيرهم . بل هو مأمور بإنذار الجميع ، وفيهم من يؤمن ومن لا يؤمن . فذكر اللفظ العام ؛ وإرادة أولئك دون غيرهم – ليس فيه بيان للمراد الخاص – وذكر المعنى الذي أوجب أنهم لا يؤمنون قط ، ولا فيه تعليق الحكم بالمعنى العام . وكلام الله تعالى يصان عن مثل ذلك .

وما ذكر من الموانع هي موجودة فى كل من لم يقبل الإنذار ، سواء كان كافراً أو منافقاً أو فاسقاً أو غير ذلك ، لسبب يوجب ذلك ، فيمتنع قبول الإنذار بسبب الموانع . ولكن هذه الموانع قد تزول ، فإنها ليست لازمة لكل كافر .

وإذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبداً ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيةٍ حَتَّى يَرَوُاْ العذابَ الأليمَ ﴾ [٤] .

---

(١) سورة الزمر : ٧١ .
(٢) سورة صٓ : ٨٥ .
(٣) سورة طه : ١٢٩ .
(٤) سورة يونس : ٩٦ ، ٩٧ .

وقد يذكر هذا وهذا .

وأما إذا اقتصر على ذكر الموانع التي فيهم ، ولم يذكر ما سبق من القول ، فهذه الموانع يرجى زوالها ويمكن ، ما لم يذكر معها ما يقتضي امتناع تغير حالهم وحصول الهدى .

فصـــل

من أسرار سورة الكافرون

﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ﴾ . جاء الخطاب فيها بـ « ما » ، ولم يجيء بـ « من » ، فقيل : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ لم يقل:« لا أعبد من تعبدون » ، لأن « من » لمن يعلم ، والأصنام لا تعلم .

[وهذا القول ضعيف جداً] ، فإن معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة والأنبياء والجن والإنس ، ومن لم يعلم . وعند الاجتماع تغلب صيغة أولي العلم ، كما في قوله:﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ (١) .

فإذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ (٢) الآية فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر ، وهو لأولي العلم .

وأما ما لا يعلم فجمعه مؤنث ، كما تقول : الأموال جمعتها والحجارة قذفتها .

فـ « ما » هي لما لا يعلم ، ولصفات من يعلم . ولهذا تكون للجنس العام ، لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته ، كما قال : ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

---

(١) سورة النور : ٤٥ .

(٢) سورة الأعراف : ١٩٤ ، ١٩٥ .

النِّسَآءِ ﴾ [١] ، أي الذي طاب والطيب من النساء . فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب ، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين ، عبر بـ « ما » ..

ولو عبر بـ « من » كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف ، حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة ، كما إذا قلت : جاءني من يعرف ، ومن كان أمس في المسجد ، ومن فعل كذا ، ونحو ذلك . فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف وإن كانت تلك الصفة قد ذهبت .

ومنه قوله :﴿ والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [٢] – على القول الصحيح إنها اسم موصول – والمعنى : وبانيها ، وطاحيها ، ومسويها . [و] لما قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [٣] – أخبر بـ « من » ، لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب فى الدنيا .

فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة . فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها ، ولا مطحية إلا بطاحيها ، ولا مسواة إلا بمسويها . وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله فى الدنيا ، وفلاحه وخيبته فى الآخرة ليسا مستلزماً لذلك العمل .

ونحو هذا قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰٓ ﴾ [٤] .

ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم فى قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٥] كما يستفهم – على وجه – بها فى قوله : ﴿ ماذا تعبدون ﴾ .

---

(١) سورة النساء : ٣ .
(٢) سورة الشمس : ٥ ، ٧ .
(٣) سورة الشمس : ٨ ، ٩ .
(٤) سورة الليل : ٣ .
(٥) سورة الشعراء : ٢٣ .

وأما قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنّ اللهُ ﴾ (١) فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التى تعبد . فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق ، وإنما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه ، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة .

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى ، فاستفهم بصيغة « ما » لأنه لم يكن مقراً به ، طالباً لتعيينه . ولهذا كان الجواب فى هذا الاستفهام بقول موسى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) ، وبقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣) فأجاب أيضاً بالصفة . وهناك قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهمْ لَيَقُولُنّ اللهُ ﴾ (٤) ، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى عن غيره . وكذلك قوله : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ (٥) – إلى تمام الآيات .

من أحكام سورة الكافرون

فقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ يقتضي تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم . لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة منه ، لأن كل من كان كافراً لا يكون معبوده الإله الذي يعبده المؤمن . إذ لو كان هو معبوده لكان مؤمناً . لا كافراً . وذلك يتضمن أموراً .

أحدها : أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله .

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .

(٢) سورة الإسراء : ١٠٢ .

(٣) سورة الشعراء : ٢٦ .

(٤) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٥) سورة المؤمنون : ٨٤ .

الثاني : أنهم إذا عبدوا الله وغيره فمعبودهم المجموع ، وهو لا يعبد المجموع – لا يعبد إلا الله وحده – فيعبده على وجه إخلاص الدين له ، لا على وجه الشرك بينه وبين غيره .

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين قول الخليل : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) . بأن يقال : هنا نفي عبادة المجموع ، وذلك لا ينفى عبادة الواحد الذي هو الله . والخليل تبرأ من المجموع ، وذلك يقتضي البراءة من كل واحد ، فاستثنى ، أو يقال : الخليل تبرأ من جميع المعبودين – من الجميع – فوجب أن يستثني رب العالمين . ولهذا لما وقع مستثنى فى أول الكلام فى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ (٣) لم يحتج إلى استثناء آخر .

وأما هذه السورة فإن فيها التبرؤ من عبادة ما يعبدون ، لا من نفس ما يعبدون . وهو بريء منهم ، ومن عبادتهم ، ومما يعبدون . فإن ذلك كله باطل ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله : « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ . مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيه مَعِي غَيْرِي فأنا مِنه بَرِيءٌ ، وَهُوَ كُلُّه لِلَّذِي أَشْرَكَ » (٤) .

فعبادة المشرك كلها باطلة ، لا يقال : نصيب الله منها حق ، والباقي باطل ، بخلاف معبودهم . فإن الله إله حق ، وما سواه آلهة باطلة .

---

(١) سورة الزخرف : ٢٦، ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء : ٧٥ ، ٧٧ .

(٣) سورة الممتحنة : ٤ .

(٤) البخارى (٢٢٥/٤) بنحوه : والنسائى (١٥٩/٦) ، وأحمد (٢٤٤/٢ ، ٣٤٠ ، ٣٦٩) .

فلما تبرأ الخليل من المعبودين احتاج إلى استثناء رب العالمين . ولما كان في هذه تبرؤه من أن يعبد ما يعبدون ، فكان المنفي هو العبادة ، تبرأ من عبادة المجموع الذين يعبدهم الكافرون .

الثالث : إن كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم ، لا عن عينه ، فهو لا يعبد شيئاً من حيث هو معبودهم . لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به ، فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه . ولو قال:« من تعبدون » لكان يقال : إلا رب العالمين ، لأن النفي واقع على عين المعبود . وليس إذا لم يعبد ما يعبدون متبرئاً منه ومعادياً له حتى يحتاج إلى الاستثناء . بل هو تارك لعبادة ما يعبدون .

وهذا يتبين بالوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ نفى عنهم عبادة معبوده . فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده . وكذلك هو إذا عبده مخلصاً له الدين لم يكن عابداً معبودهم .

الوجه الخامس : أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله ، وقصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو الله ، كالذين عبدوا العجل ، والذين عبدوا المسيح ، والذين يعبدون الدجال ، والذين يعبدون ما يعبدون من دنياهم وهواهم ، ومن عبد من هذه الأمة . فهم عند نفوسهم إنما يعبدون الله ، لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله .

فإذا قال:﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ كان متبرئاً من هؤلاء المعبودين وإن كان مقصود العابدين هو الله .

الوجه السادس : أنهم إذا وصفوا الله بما هو بريء منه ، كالصاحبة والولد ، والشريك ، وأنه فقير أو بخيل ، أو غير ذلك ، وعبدوه كذلك ، فهو برىء من المعبود الذي لهؤلاء . فإن هذا ليس هو الله ، كما قال النبى ﷺ : « أَلَا تَرونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي سَبَّ قُرَيشٍ ؟ يَسُبُّونَ مُذَمَّماً وَأَنَا محمدٌ » . فهم وإن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذمم كان سبهم واقعاً على من هو مذمم ، وهو محمد – ﷺ – وذاك ليس هو الله . فالمؤمنون برآء مما يعبد هؤلاء .

الوجه السابع : أن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسول ربه فهو فى الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة .

وقس على هذا فلتتأمل هذه المعاني ، وتلخص وتهذب ، والله تعالى أعلم .

الفهــرس